بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك سعود
كلية التربية

١٢٥ سلم

موقف أهل السنه من الفرق (ب)

أستاذ المادة :
د . سعود بن سلمان بن محمد آل سعود

الشيعة الزيدية: نشأتهم، عقائدهم، وأهم فرقهم

نشأة الزيدية :

الشيعة الزيدية ينتسبون إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (٧٩ ــ ١٢٢هـ / ٦٩٨ ــ ٧٤٠م)[1]. وقد خرج زيد على بني أمية، ووقف من هشام بن عبد الملك (٧١ ــ ١٢٥هـ) موقفاً شبيهاً بموقف جده الحسين (٤ ــ ٦١هـ) مع يزيد بن معاوية (٢٥ ــ ٦٤هـ).وقد تلقى زيد العلم في المدينة والبصرة والعراق، وبلغ درجة عالية في العلم والفقه، وأصبح إماماً لمذهب فقهي يتبعه الزيود[2]. ويذكر أن أبا حنيفة تتلمذ على زيد وأخذ العلم عنه وكان يتعصب له[3]. ولم يقنع زيد بهذه المكانة العلمية التي بلغها بل انصرفت جهوده إلى السياسة والخوض في غمارها. ويقال أنه دُفِعَ دَفْعاً إلى هذا، إذ استثاره ظلم الأمويين لقومه واضطهادهم لآله، كما أنه شخصياً تعرض للمهانة والإذلال من قبل الخليفة هشام ابن عبد الملك وولاته، إذ كان هشام يخشى جانب زيد ويخاف أثره بين الشيعة، ومن ثم عمل على اضطهاده من ناحية وإثارته من ناحية أخرى، وذكر أن هشام قال مرة لزيد: لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أَمَة (كانت أم زيد سندية)، فقال له زيد: يا أمير المؤمنين لقد كان إسحاق ابن حرة وإسماعيل ابن أَمَة، فاختص الله ولد إسماعيل فجعل منهم العرب، فما زال ذلك ينمو حتى كان منهم أفضل الخلق أجمعين محمد عليه الصلاة والسلام[4] ولقد أثارت مثل هذه المواقف الإمام زيد، وشعر بأنه أُوذي في كرامته ومروءته، وأنه لابد له من أن يثأر لهما. والتف حوله أهل الكوفة وأعلنوا له

---

(١) المعارف (ابن قتيبة)، ص ٢١٦.

(٢) الإمام زيد (أبو زهرة)، ص ٤ ــ ٥.

(٣) تاريخ المذاهب الإسلامية (أبو زهرة)، ص ٧٣.

(٤) انظر نص هذه المحاورة في مروج الذهب (المسعودي)، جـ ٣، ص ٢١٨.

الولاء بل ألحوا عليه في الخروج ووعدوه بالنصر والمؤازرة، ولكن زيداً تردد كثيراً، إذ انه تذكر التجارب التي مر بها كل من «علي» و«الحسين» رضوان الله عليهما مع الكوفيين وخذلانهم لهما. وأخيراً لم يجد زيد بُدّاً من الخروج فاستجاب لأهل الكوفة. وخرج على الخليفة هشام. وخاض عدة معارك ضد جيوش الخلافة كان النصر فيها حليفه. وبينما كان زيد يعد العدة لإحدى المعارك خطب أصحابه حاثاً لهم على الاستعداد للحرب فتوقفت طائفة منهم وطالبوه بأن يوضح لهم رأيه في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جده كما يزعمون.

ولم يكن لزيد التقي العالم إلا أن يقول: إني لا أقول فيهما إلا خيراً، وبين لهم أنه إنما خرج على بني أمية الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وظلموا أهل بيت نبيهم، وأنه يخرج داعياً إلى كتاب الله ليُعْمَل به، وإلى السنة أن يعمل بها، وإلى البدع أن تطفأ وإلى الظلمة من بني أمية أن تخلع وتنفى.

ولم ينل هذا الرد استحسان الشيعة جميعاً ففارقوه ولم يبق معه إلا بضع مئات واجه بها جيش الخلافة المكون من اثنى عشر ألفاً، وكاد النصر أن يكون حليف زيد، رغم قلة قوته، لولا أن أصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته وهزيمة أتباعه عام ١٢٢هـ[١]. وكان مع زيد في هذه المعارك ابنه يحيى الذي استطاع الفرار إلى خراسان، ولكن جيوش الأمويين طاردته حتى قتل بعد ثلاث سنوات من مقتل أبيه عام ١٢٥هـ[٢].

ورغم هذه النهاية المريرة لزيد وابنه فقد استمر الزيدية في الخروج، فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي المعروف (بالنفس الزكية) بالمدينة ضد بني العباس وقتل في ١٤ رمضان عام ١٤٥هـ[٣]. كما خرج من بعده أخوه إبراهيم بالبصرة وقتل بها في ٢٥ ذي القعدة عام ١٤٥[٤] وخرج أخوه يحيى بن

(١) تاريخ الطبري، جـ ٧، ص ١٨٠ / ١٨١، الكامل (ابن الأثير)جـ ٥، ص ٢٤٢ / ٢٤٣.

(٢) تاريخ الطبري، جـ ٧، ص ٢٢٨ ــ ٢٣٠، الكامل (ابن الأثير) جـ ٥، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢.

(٣) الكامل (ابن الأثير) جـ ٥، ص ٥٢٩ ــ ٥٥٠.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٦٠ ــ ٥٧٠.

عبد الله أيام الهادي والرشيد[1]. وخرج أيضاً الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي في خلافة الهادي وقتل عام ١٦٩هـ[2]. واستطاع أحد أئمة الزيدية، ويسمى الحسن بن زيد، ويلقب بالحسن الأطروش، أن يؤسس دولة زيدية في أرض الديلم جنوب بحر الخزر عام ٢٥٠هـ[3]. كما استطاع الزيدية أيضاً إقامة دولة لهم في اليمن، أقامها الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من ولد القاسم الرسي حفيد إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ذلك أن الهادي ذهب إلى اليمن عام ٢٨٠هـ ودعا إلى مذهبه هناك ولكن لم يجد عوناً من اليمنيين، ثم عاد إلى اليمن ثانية عام ٢٨٤هـ وذهب إلى صعدة وكان التوفيق حليفه فبويع بالإمامة وسعى إلى إقامة حكم إسلامي، وعمل على جمع شمل الناس على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، واستطاع إقامة العدل وإصلاح أمر الناس وإقامة حدود الله. ودخل في حروب شديدة ضد القرامطة وظل يقاتلهم نحواً من خمس سنين حتى مات عام ٢٩٨هـ، وتولى الأمر من بعده ابنه أحمد بن يحيى وصارع القرامطة الإسماعيلية أكثر من سبع وعشرين سنة وتوفي بصعدة عام ٣٢٥هـ[4] وأخيراً تغلب الإسماعيلية على اليمن وانتهت دولة الزيود.

وبعد حوالي ألف عام من هذا التاريخ استطاع الزيدية استرداد اليمن مرة ثانية، إذ قاد الإمام يحيى بن منصور بن حميد الدين ثورة ضد الأتراك عام ١٣٢٢هـ[5]. واستطاع أن يؤسس دولة زيدية استمرت حتى سبتمبر عام ١٩٦٢م حيث قامت الثورة اليمنية، وانتهى بذلك حكم الزيود، ولكن لا زالت اليمن معقل الزيود ومركز ثقلهم.

---

(١) الكامل (ابن الأثير) جـ ٦، ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٠ ــ ٩٤.

(٣) أنظر، تاريخ الفرقة الزيدية بين القرنين الثاني والثالث للهجرة، (فضيلة عبد الأمير الشامي)، ص ٢٢٩ ــ ٢٦٠.

(٤) تاريخ اليمن السياسي (محمد يحيى حداد)، ط. ثالثة ١٣٩٦ ــ ١٩٧٦، دار الهناء للطباعة، ص ١٧٤ ــ ١٧٧.

(٥) بيان مذهب الباطنية وبطلانه (محمد بن الحسين الديلمي)، مقدمة الناشر، ص و، ز.

تعاليم الشيعة الزيدية حول الإمامة :

يعتبر الزيدية أكثر الشيعة اعتدالاً وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة، بل يذهب بعض الكتاب إلى أن زيداً لم يكن شيعياً على الإطلاق ولم تكن حركته للشيعة وإنما هي حركة إسلامية استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتاز عن غيره من العلماء بأنه من دوحة النبوة ومن أبناء علي رضي الله عنه. ويؤيد ذلك ــ كما يقول صاحب هذا الرأي ــ أن دعوة زيد كانت إلى الكتاب والسنة وإحياء السنن وإماتة البدع، وأنها خلت من المفاهيم الشيعية: كالنص، والوصية، والحق الإلهي للأئمة. بل إن من حاربوا معه لم يكونوا شيعة بالمفهوم الاصطلاحي.، بل ضم أتباعه جماعات من الفقهاء وأهل العلم والمعتزلة وجماعة من أهل الكوفة ممن أحبوا علياً[1].

ويذهب إلى نفس هذا الرأي بعض الشيعة الإثنى عشرية المعاصرين الذين نفوا انتماء الزيدية إلى الشيعة، ويقول أحدهم في هذا الصدد: «الزيدية ليسوا من فرق الشيعة في شيء، كما أنهم ليسوا من السنة ولا من الخوارج، وأنهم طائفة مستقلة بين السنة والشيعة، ليسوا من السنة ولا من الخوارج لأنهم حصروا الإمامة في ولد فاطمة وليسوا من الشيعة لأنهم لا يوجبون النص على الخليفة، هذا إلى أنهم يأخذون فقه أبي حنيفة، أو أن فقههم أقرب إلى الفقه الحنفي منه إلى الفقه الشيعي[2]». هذا إضافة إلى أن الزيدية تجنبوا تكفير أصحاب الرسول (ﷺ) أو سبهم خصوصاً أولئك الذين بايعهم علي واعترف بإمامتهم، كما أنهم اتخذوا موقفاً معتدلاً إلى حد ما في نظرتهم إلى أئمتهم، ويمكن تلخيص مبادىء الزيدية وتعاليمهم حول الإمامة فيما يأتي :

١ ــ شروط الإمامة عند الزيدية: بالنسبة لقضية الإمامة يذهب الزيدية إلى أن الإمام الذي أوصى له النبي (ﷺ) لم يعيّنه بالاسم، كما قالت الرافضة، بل عرفه بالوصف. وأن الأوصاف، التي ذكرت لم تكتمل في أحد اكتمالها في (علي)، ومن ثم كان ينبغي أن يكون هو الإمام والخليفة بعد رسول الله (ﷺ)، وقد حدد الزيدية أوصاف الإمام بأن يكون هاشمياً ورعاً تقياً عالماً سخياً، وأن يخرج داعياً لنفسه. واشترطوا بعد (علي) أن يكون الإمام فاطمياً (أي من ذرية فاطمة رضي الله عنها)

(١) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ ٢، ص ١٥٦ / ١٦٠.
(٢) الشيعة في الميزان، ص ٣٦.

دون غيرهم سواء كان في أولاد الحسن أم الحسين[1]. ويبين الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (٢٤٥ ـ ٢٩٨هـ) في إحدى رسائله رأي الزيدية حول قضية الإمامة فيقول: «يجب أن يعلم أن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووصي رسول رب العالمين ووزيره وقاضي دينه وأحق الناس بمقام رسول الله (ﷺ) وعلى آله، وأفضل الخلق بعده وأعلمهم بما جاء به محمد وأقومهم بأمر الله في خلقه»، ثم يورد ما أورده الشيعة من أدلة على أحقية علي في الإمامة، كقوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله) و(يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك) وما يرتبط بها من أحاديث «الغدير»، وما ورد من أحاديث تبين فضل علي واستدل بها الشيعة على إمامته مثل «أنت مني بمنزل هارون».. و«أنا مدينة العلم وعلي بابها» وحديث المباهلة، الذي يبين، في رأيه، أحقية الحسن والحسين بالإمامة بعد والدهما، ويقول: إن الإمامة لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين بتفضيل الله لهما وجعله ذلك فيهما وفي ذريتهما[2]. ثم يبين الشروط التي ينبغي توفرها في الإمام فيقول: «وإن الإمام من بعد الحسن والحسين من ذريتهما من سار سيرتهما وكان مثلهما واحتذى بحذوهما فكان ورعاً تقياً صحيحاً نقياً، وفي أمر الله مجاهداً وفي حطام الدنيا زاهداً، وكان فهماً لما يحتاج إليه، عالماً بتفسير ما يرد عليه، شجاعاً كمياً بذولاً سخياً... فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو الإمام المفترض طاعته الواجبة على الأمة نصرته»[3]. وهذه الآراء تتضمن أن الزيدية يحصرون الإمامة بعد علي رضي الله عنه في أولاد فاطمة، كما أنهم يقولون بمبدأ الخروج كشرط أساسي في صحة الإمامة.

وقد نسب الشهرستاني هذه الآراء إلى زيد بن علي نفسه، وذكر ان مذهبه هذا المذهب.[4] وتابع الشهرستاني في هذا بعض الكتاب المحدثين الذين ساقوا آراء الزيدية باعتبار أنها آراء زيد، وذهبوا إلى أن زيداً لا يعتبر الفاطمية شرطاً أساسياً وإنما هو شرط تفضيلي، فإن كانت ولاية غير الفاطمي فيها مصلحة كان أولى بالولاية، وإلا فالأفضل أن يولي الفاطمي [5].

(١) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٥٤ ـ ١٥٥.
(٢) رسائل العدل والتوحيد، جـ ٢، ص ٧٤ ـ ٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨ ـ ٧٩.
(٤) الملك والنحل (الشهرستاني) جـ ١ ص : ١٥٥.
(٥) الإمام زيد (أبو زهرة) ص : ١٨٦ / ١٨٧.

ودعوى أن زيداً حصر الإمامة في أولاد فاطمة واعتبر هذا شرطاً، يحتاج إلى اثبات ودليل، لا سيما وأن هناك بعض الأقوال المنسوبة إلى زيد تعارض هذا الرأي. ومن ذلك ما رواه صاحب كتاب «شرح رسالة الحور العين» عن زيد أنه قال «.... ثم كنا ذرية رسول الله (ﷺ) وما فينا إمام مفترض طاعته..»[١]. الأمر الذي يرجح أن زيداً لم يقل بشرط الفاطمية لصحة الإمامة بل قالت به الزيدية بعده وأصبح مبدأ من مبادئهم.

ومما يؤيد هذا ما ذكره ابن النديم من أن «الزيدية هم الذين قالوا بإمامة زيد بن علي عليه السلام ثم قالوا بعده بالإمامة في أولاد فاطمة»[٢].

أما مبدأ الخروج كشرط في صحة الإمامة وما يتضمنه من أن زيداً خرج داعياً لنفسه كإمام، فقد نسبه الشهرستاني أيضاً إلى زيد، وادعى بأن محمد الباقر ناظر أخاه زيداً في هذا المبدأ وقال له محتجاً: «على مقتضى مذهبك والدك ليس بإمام، فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج»[٣]. وهذا المبدأ يناقض أيضاً ما عرف عن زيد من آراء في الإمامة، فقد قال زيد بصحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ومعلوم أنه لم يخرج واحد من هؤلاء مطالباً بالإمامة لنفسه، كما أن علياً الذي قيل بأن زيداً نسب إليه الخروج ومن ثم قال بصحة إمامته،، معلوم لدى زيد أنه لم يولى على المسلمين لخروجه بل إنه اختير أميراً للمؤمنين من قبل جمهرة المسلمين وبويع على ذلك.

أما مسألة خروج زيد وهل خرج مطالباً بحقه وحق أهل بيته في الإمامة، أم أنه خرج آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، فهناك العذيد من الروايات والأقوال المتضاربة في هذا الصدد، يؤيد بعضها القول بأنه خرج داعياً لحقه وحق أهل بيته، بينما ينفي بعضها هذا الأمر ويثبت أنه ما خرج إلا آمراً بالمعروف ناهياً عن

---

(١) شرح رسالة الحور العين، ص: ١٠٨.

(٢) الفهرست (ابن النديم)، ص: ٢٢٦.

(٣) الملك والنحل (الشهرستاني) جـ ١ ص: ١٥٦ وينكر الزيدية المعاصرون نسبة هذه المناظرة إلى زيد بحجة أنه لم يروها أحد من محققي الزيدية ولا من المعتزلة ويستبعدون امكانية وقوعها لاتفاق الإمامين — كما يقولون — على الطريق إلى الإمامة وواجبات الإمام ومسئولياته. انظر: الزيدية نظرية وتطبيق (على عبد الكريم الفضيل شرف الدين) ص: ٢١ / ٢٢.

المنكر[1]. ومما يرجح القول الثاني أن زيداً لا يعترف أساساً بأن أهل بيته لهم الحق دون من سواهم في الإمامة، بل إن زيداً ينفي أن يكون أباه علي بن الحسين أو أخاه محمد الباقر مثلاً ادعيا الإمامة ويقول في ذلك: فوالله ما ادعاها علي بن الحسين ولا ادعاها أخي محمد بن علي منذ صحبته حتى فارقني[2].

كما أن هناك ما يشير إلى أن الجارودية من الزيدية هم الذين قالوا بمبدأ الخروج كشرط في صحة الإمامة ويقول عنهم الناشيء الأكبر: «فخرجت هذه الفرقة «يعني الجارودية» مع زيد بن علي بن الحسين فسمتهم الشيعة الزيدية، وزعموا أن من دعا إلى نفسه بالإمامة من ولد فاطمة وهو في بيته مرخى عليه ستره فليس بإمام ولا طاعته مفروضة»[3].

٢ ــ وقد ذهب الزيدية خلافاً للرافضة: إلى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. إذ أن هذه الصفات التي اشترطت في الإمام ليست الصفات الواجب توفرها لصحة الإمامة، بل هي صفات الإمام الكامل والذي هو أولى بالإمامة من غيره، فإن اختارت الأمة إماماً لم يستوف بعض هذه الصفات وبايعوه، صحت إمامته ولزمت بيعته. وبناء على هذا فقد أقروا إمامة الشيخين أبي بكر وعمر، ولم يقل أحد منهم بتكفير أحد من الصحابة، وقد نسب الشهرستاني هذا المبدأ إلى زيد فقال «وقد كان من مذهبه جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل فقال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً، وسيف أمير المؤمنين (علي) عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي. فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن، وبالسبق في الإسلام والقرب من رسول الله (ﷺ)»[4].

---

(١) انظر: ثورة زيد بن علي (ناجي حسن) ص: ١٤٠ ــ ١٤٧، الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة (هاشم معروف الحسنى) ص: ٦٨ ــ ٧٠.

(٢) شرح رسالة الحور العين، : ص: ١٨٨.

(٣) مسائل الإمامة (الناشيء الأكبر) ص٤٢، ٤٤ ــ ٤٥.

(٤) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٥٥.

وأكد نسبة هذه الآراء إلى زيد كل من كتبوا عنه، مشيرين إلى أن زيداً بهذا أكد عدم النص على الإمامة[1]. ورغم أن هذه الآراء اكثر اعتدالاً من آراء الشيعة الإثنى عشرية فإن نسبتها إلى زيد تحتاج إلى دليل إذ أنها تتضمن أن زيداً يقول بأفضلية علي على كل الصحابة بعد الرسول (ﷺ)، وهذا لا يتفق مع ما عرف عن زيد من اعتراف بفضل الخلفاء الراشدين الذين سبقوا علياً، كما أن هذا الرأي المنسوب إلى زيد، يوحي بأن الصحابة كان ولاؤهم لأقاربهم من الكافرين أشد من ولائهم للإسلام، ولذا كان موقفهم هذا من علي لأنه قتل أقاربهم. وهذا ظن سيء بالصحابة يربأ زيد أن يقول به، وهو العارف بأن الصحابة زكاهم القرآن بأنهم خير أمة، «كنتم خير أمة اخرجت للناس»، وشهدت لهم مواقفهم بأنهم ضحوا بأقاربهم، وقاتلوهم حينما عارضوا الإسلام ووقفوا في وجه دعوته.

وقد نسب ابن تيمية هذا القول إلى الزيدية لا إلى زيد، وهو ما يبدو أقرب إلى الحق، يقول ابن تيمية «كثيراً من خيار الزيدية يقولون أن علياً كان أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان، ولكن كانت المصلحة الدينية تقتضي خلافة هؤلاء لأنه كان في نفوس كثير من المسلمين نفور من علي بسبب من قتل من أقاربهم، فما كانت الكلمة تتفق على طاعته فجاز تولية المفضول لأجل ذلك، فهذا القول يقوله كثير من خيار الشيعة وهم الذين ظنوا أن علياً أفضل وعلموا أن خلافة أبي بكر وعمر حق لا يمكن الطعن فيها، فجمعوا بين هذا وهذا، بهذا الوجه وهؤلاء عذرهم آثار سمعوها، وأمور ظنوها تقتضي فضل علي عليهم»[2].

٣ ـ وقد جوز الزيدية البيعة لإمامين في إقليمين مختلفين كل في إقليمه الذي خرج فيه إذا ما توفرت الشروط التي شرطوها فيه أو اختير من قبل أهل الحل والعقد[3]. ويتضمن هذا الرأي أنه لا تجوز البيعة لإمامين في إقليم واحد لما يؤدي إليه من الفتنة ولما ورد في الأثر من النهي عن ذلك.

وقد ذهب النشار إلى استبعاد صدور هذا المبدأ عن زيد، وعلق على ما أورده الشهرستاني عن الزيدية بأنهم جوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه

---

(١) انظر: الإمام زيد (أبو زهرة) ص: ١٨٤/١٨٦.
(٢) منهاج السنة النبوية، جـ ٣، ص ٣١٩.
(٣) الملل والنحل، (الشهرستاني) جـ١، ص: ١٥٥.

الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة «بأن هذا النص لم يصدر عن الإمام زيد، بل وضعه الزيدية الذين تابعوا الإمامين: محمد وإبراهيم ابنا عبد الله ابن الحسن في ثورتهما على المنصور، حيث خرجا في دولة هذا الأخير وقتلا. اللهم إلا إذا فسرنا هذا النص تفسيراً آخر، وهو تجويز الخروج والطاعة في الخروج بمعنى الثورة على الإمام الظالم، فيجوز أن يقوم إمام من أئمة أهل البيت بالثورة على الظلم، ثم يسلم أحدهما الأمر للآخر. وهذا تخريج بعيد؛ ومن الأفضل القول بأن هذا الأصل لم يصدر عن زيد وهو القائل» والله لوددت أن يدي معلقة بالثريا فأقع إلى الأرض أو حيث أقع فاتقطع قطعة قطعة دون أن أصلح بين أمة محمد (ﷺ). «والاصلاح لن يكون إلا باجتماعها على رجل واحد»[1].

٤ ــ وقد أنكر جمهور الزيدية ما ذهب إليه «الروافض» من القول بعصمة الأئمة والرجعة والتقية وردوا ما استدلوا به من أحاديث وروايات في هذا الصدد وأوردوا عن أئمة أهل البيت من الروايات ما يعارض روايات الرافضة. كما أنكر جمهور الزيدية مزاعم الرافضة حول القرآن والسنة، وتجريحهم للصحابة رضوان الله عليهم والطعن فيهم[2].

عقائد الزيدية :

١ ــ الزيدية والمعتزلة :

هناك ارتباط وثيق إن لم نقل اتفاق تام بين آراء الزيدية وآراء المعتزلة في مسائل الاعتقاد: وقد ارجع الشهرستاني هذا الارتباط إلى ما زعمه من تلمذة زيد بن على لواصل بن عطاء (٨٠ ــ ١٣١هـ) وأخذه الاعتزال منه. إذ يقول الشهرستاني «وزيد ابن علي ــ لما كان مذهبه هذا المذهب، أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم فتتلمذ في الأصول لواصل بن عطاء الغزال الألثغ رأس المعتزلة ورئسهم ــ مع اعتقاد واصل أن جده علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حروبه التي جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام، ماكان على يقين من الصواب،

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام جـ ٢ ص: ١٣١ / ١٣٢.

(٢) ويذكر المقبلي في عدة أماكن من كتابه العلم الشامخ بعض الانحرافات المنسوبة إلى بعض الزيدية، كالطعن في الصحابة، (ص ١٧، ٣٢١) والقول بعصمة علي وفاطمة والحسين (ص ٣٨٦)، وردهم لبعض الأحاديث الصحيحة (ص ٣٥٣ ــ ٢٩٣)، كما ينسب لبعضهم بعض الآراء الفقهية التي يبدو فيها التعصب المذهبي (ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤، ٣٥٢)،ولكن جمهور الزيدية وعلمائهم على غير هذا تماماً كما ذكرنا

وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه، فاقتبس منه الاعتزال وصارت أصحابه كلهم معتزلة». ويذهب الشهرستاني إلى أن محمد الباقر لام أخاه زيداً على تتلمذه لواصل واقتباسه العلم ممن يجوز الخطأ على جده في قتال الناكثين والقاسطين والمارقين، ومن تكلم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت(١) وقد أيد هذا الزعم كثير من الباحثين قدامى ومحدثين، كما أيده كل من المعتزلة والزيدية، فالمعتزلة اعتبروا زيداً من الطبقة الثالثة من طبقاتهم، وعدوا الزيود من أعلام مذهبهم(٢)، كما أن المعتزلة اعتنقوا مذهب المعتزلة وتبنوا آراءهم.

وما زعمه الشهرستاني من تلمذة زيد لواصل وأخذه المذهب عنه، لا أساس له. صحيح أن زيداً التقى بواصل بالبصرة، ولكن لم يكن زيد في مقام التلميذ بل كان في قمة نضجه العلمي. ومن ثم فإن ما بناه الشهرستاني ومن جاءوا بعده على هذا الزعم، من أن زيداً أخذ الاعتزال عن واصل غير صحيح(٣). ويؤيد هذا ما يلي :

أولاً :إن زيداً من آل البيت ولم يعرف عن أحد منهم ميل إلى الاعتزال أو أخذ بآراء المعتزلة في العقائد. «بل أن أئمة أهل البيت كعلي وابن عباس ومن بعدهم، كلهم،كما يقول ابن تيمية، متفقون على ما اتفق عليه سائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان من إثبات الصفات والقدر، والكتب المشتملة على المنقولات الصحيحة مملوءة بذلك(٤). ويقول أيضاً فليس من أئمة أهل البيت مثل علي بن الحسين، وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد من كان ينكر الرؤية ولا يقول بخلق القرآن ولا ينكر القدر ولا يقول بالنص على علي ولا بعصمة الأئمة الإثنى عشر ولا يسب أبا بكر وعمر، والمنقولات الثابتة المتواترة عن هؤلاء معروفة موجودة وكانت مما يعتمد عليه أهل السنة»(٥).

ثانياً : إن زيداً كان موضع ثقة علماء الجرح والتعديل ولم يتهم بالميل إلى

---

(١) الملل والنحل (الشهرستاني) جـ ١ ص : ١٥٥ / ١٥٦.

(٢) انظر: المنية والأمل (ابن المرتضى) ص: ١٢، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، (القاضي عبد الجبار): ٢٢٨.

(٣) انظر: الإمام زيد المفترى عليه (شريف الخطيب) ص: ٥٣ / ٦٥.

(٤) منهاج السنة النبوية (ابن تيمية) جـ ١: ص: ٢٢٨.

(٥) المرجع نفسه، ص: ٢٩٦.

الاعتزال، ولو كان فيه شبهة اعتزال لأشار إليه علماء الحديث.

ثالثاً :إذا علمنا أن المعتزلة قالوا بأصولهم الخمسة من: التوحيد والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفقاً لمفاهيمهم المخالفة لآراء أهل السنة فانه لم ترد نصوص صحيحة عن زيد تثبت أنه تبنى رأياً من آراء المعتزلة هذه[1].

أما الزيود فإنهم تبنوا آراء المعتزلة واتبعوهم في المذهب. ويذهب صاحب العلم الشامخ، إلى أن الزيدية المتأخرين في اليمن معتزلة في كل الموارد إلا في شيء من مسائل الإمامة، وأورد أقوال بعض أئمة الزيدية التي تؤيد ما ذهب إليه، وتمدح المعتزلة وتثني عليهم بل وتقدمهم على الزيدية لأنهم سادتها وعلماؤها، ولأنهم مشائخ سادتنا وعلمائنا القادات، كما يقول واحد منهم[2]. كما أن الكتب التي حفظت من تراث الزيدية المبكر تدل بما لا يدع مجالاً للشك على مدى التوافق بين فكر الطائفتين. فرسائل القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (١٦٩ — ٢٤٦هـ / ٧٨٥ — ٨٦٠م) تتطابق، حتى في عناوينها، مع فكر المعتزلة، فله مثلاً، كتاب في أصول العدل والتوحيد. وكتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد الحميد، وكتاب الأصول الخمسة. والرد على المجبرة في التوحيد... إلخ.

كما نجد منهجه يتفق مع منهج المعتزلة القائم على التأويل. فالتوحيد عنده يعني تنزيه الله تعالى، ويقوم على تأويل الآيات التي تدل على رؤية الله تعالى، ويفسر النظر الوارد في قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، بأنه يعني انتظار ثواب الله تعالى وكرامته ورحمته وما يأتيهم من خيره وفوائده[3]. ويؤول اليد بالقدرة أو النعمة، والوجه بالذات[4]. والمجيء بأنه مجيء الملائكة، أو مجي آيات الله تعالى من الزلازل والأهوال[5]. ويذهب في تفسير كلام الله تعالى، كما ذهبت المعتزلة، إلى أن الله أنشأ كلاماً خلقه كما شاء، فسمعه موسى (عليه السلام)،

(١) الإمام زيد المفترى عليه (شريف الخطيب) ص: ١٤٧ — ٢٠٢.
(٢) العلم الشامخ (صالح المقبلي) ص: ١١ — ١٢.
(٣) رسائل العدل والتوحيد ــ كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد، جـ ١، ص ١٠٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ١١٠.
(٥) المرجع نفسه، ص ١٠٨ ــ ١٠٩.

وفهمه. وكل مسموع من الله فهو مخلوق لأنه غير الخالق له[١]. وآراء القاسم الرسي في العدل مطابقة لآراء المعتزلة، فيذهب إلى أن الله لم يقض أفعال الإنسان ولم يُقَدِّر ما يقع فيه من آثام، بل أن قضاؤه لها، النهي عنها، والحكم على أهلها بالعقوبة والنكال في الدنيا والآخرة إلا أن يتوبوا[٢]. وبناء على هذا يفسر الهدى والضلال بأن الله تعالى يضل من يشاء، بأنه لا يضل أحداً حتى يبين لهم ما يتقون فإذا بيَّن لهم ما يتقون وما يأتون وما يذرون فأعرضوا عن الهدى وصاروا إلى الضلالة والردى أضلهم بأعمالهم الخبيثة حتى ضلوا.... وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أن سماهم ضلالاً وشهد عليهم بالضلال ووصفهم به من غير أن يدخلهم في الضلالة ويقرهم عليها. فإن رجعوا عن الضلالة وتابوا وصاروا إلى الهدى، سماهم مهتدين وأزال عنهم اسم الضلالة والفسق. ولم يبتدىء ربنا جل ثناؤه أحداً بالضلالة من عباده، ولا وصف بها أحداً من قبل أن يستحقها. فأفعال العباد، من طاعة الله ومعصيته، هي فعلهم، وأن الله جل ثناؤه لم يخلق ذلك[٣]».

وفي الوعد والوعيد، يرد القاسم الرسي على المرجئة الذين شككوا ـــ كما قال ـــ الخلق في وعيد الله[٤]. «فكل من مات على معاصي الله مصراً غير تائب إلى الله، فهو من أهل وعيد الله وعقابه. وكل من أتى كبيرة من الكبائر، أو ترك شيئاً من الفروض المنصوصة على الاستحلال لذلك، فهو كافر مرتد، حكمه حكم المرتدين. ومن فعل شيئاً من ذلك إتباعاً لهواه وإيثاراً لشهواته كان فاسقاً فاجراً ما أقام على خطيئته، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل النار خالداً فيها وبئس المصير[٥]». فلا يغتر مغتر ولا يتكل متكل على قول من يقول، من الكاذبين على الله وعلى رسوله صلوات الله عليه وعلى أهله: أن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها يعذبون بقدر ذنوبهم، هيهات أبي الله جل ثناؤه ذلك، وذلك أن الآخرة دار جزاء والدنيا دار عمل وبلواء، فمن خرج من دار البلوى إلى دار الجزاء على طاعة الله أو معصيته فهو صائر إلى ما أعد الله له خالداً فيها أبداً[٦]».

(١) رسائل العدل والتوحيد، جـ ١، ص ١٠٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١١١ ـــ ١١٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ١١٣ ـــ ١١٤، ١١٧ ـــ ١١٨.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٠ ـــ ١٢٢.
(٥) المرجع نفسه، جـ١، ص ١٢٧ ـــ ١٢٨.
(٦) المرجع نفسه، ص ١٢٩.

ويقول: «إن الأصل الثالث من أصولهم أن الله صادق الوعد والوعيد يجزي بمثقال ذرة خيراً ويجزي بمثقال ذرة شراً، من صيّره إلى العذاب فهو فيه أبداً مخلداً كخلود من صيّره إلى الثواب الذي لا ينفد[(١)]».

ونجد هذا الفكر نفسه يتكرر بحججه وبراهينه لدى حفيد القاسم الرسي يحيى ابن الحسين بن القاسم (٢٤٥ ــ ٢٩٨هـ / ٨٥٩ ــ ٩١٠م)، الملقب بالهادي إلى الحق والذي ورد ذكره من قبل، ويتجلى التطابق بين آرائه أيضاً وآراء المعتزلة في رسائله وكتبه عن: التوحيد والعدل وتصديق الوعد والوعيد، وإثبات النبوة والإمامة[(٢)].

٢ ــ الاتجاه السلفى بين الزيدية

وإلى جانب هذا النهج الذي يشابه نهج المعتزلة ويتفق معهم في الأفكار والأصول، فقد ظهر بين الزيدية في عصور متأخرة تيار معارض للمعتزلة رفض منهجهم الكلامي، كما رد على آرائهم ونقضها، وقد ذكر الصنعاني العديد من أئمة الزيدية وعلمائهم الذين اتخذوا هذا الموقف[(٣)]، ومن بين هؤلاء حميدان بن يحيى بن حميدان (ت ٦٥٦هـ)، الذي اتهم المعتزلة بسلوك طريق الفلاسفة في الجدل، وأنهم خالفوا بذلك أدلة الهدى ووقعوا في الضلال.

ورغم أن هذا التيار لم يفلح في أن يجعل من الزيدية خصماً للمعتزلة خصومة الأشاعرة لها، ولكنه استطاع كما يقول ــ أحمد صبحي ــ أن يكشف عن خطأ الظن بمشايعة الزيدية للمعتزلة مشايعة تامة في الأصول، وأثبت أن الزيدية ــ خلافاً للمعتزلة ــ لم يسرفوا إسراف المعتزلة في مباحث الألوهية، ولم يغالوا غلوهم في النظر إلى تعليل أفعال الله تعالى، ولم يجاروا المعتزلة في الكلام عن الجوهر الفرد والكمون والطفرة والمداخلة»[(٤)].

---

(١) رسائل العدل والتوحيد، الأصول الخمسة، جـ١ ص ١٤٢.

(٢) المرجع نفسه، جـ ٢، ويتضمن الرسائل التالية :
الرد على المجبرة القدرية ، كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد وإثبات النبوة والإمامة في النبي وآله، كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية في الجبر وإثبات الحق ونقض قوله، كتاب الجملة، جملة التوحيد، الرد على أهل الزيغ من المشبهين.

(٣) انظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ابن الوزير) ص: ٢٢ وما بعدها.

(٤) الزيدية (أحمد محمود صبحي) ص: ٥٣٣ ــ ٥٣٤.

كما ظهر أيضاً تيار متفتح على أهل السنة، ويمثل هذا التيار علماء أمثال ابن الوزير، وابن الأمير، والشوكاني.

أما ابن الوزير (محمد بن إبراهيم ٧٧٥ ــ ٨٤٠هـ) فقد تتلمذ على علماء الزيدية وعلى غيرهم، وأخذ من المذهب الزيدي ومن المذاهب الأخرى، الأمر الذي أكسبه نظرة واسعة تجاوزت حدود المذهب الزيدي، وقد رفض ابن الوزير عصبية المتكلمين، ونقد طريقتهم، وبين خطأ المتكلمين في زعمهم أن آيات الصفات وأمثالها من الآيات التي تتناول قضايا العقيدة، من المتشابه الذي يمكنهم أن يعلمونه يقيناً، مؤكداً أن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله[1]. وفي الوقت ذاته دافع، ابن الوزير دفاعاً حاراً عن المحدثين، ورجح آراء أهل السنة ورجال الحديث، في مسائل العقيدة على آراء المعتزلة والزيدية، وفي مسألة رؤية الله تعالى، رد آراء المعتزلة والزيدية الذين أنكروا الرؤية وطعنوا في أحاديثها وقال بأن أحاديث الرؤية مستفيضة ورواتها كثيرون على رأسهم إمام الجميع علي بن أبي طالب وإمام المعتزلة وأهل السنة أبو بكر الصديق وابن عباس وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبو هريرة وعبد الله بن عمر، وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله الأنصاري، ومن التابعين سعيد بن المسيب والحسن البصري.. وأئمة المذاهب الأربعة وغيرهم..»[2].وعموماً فإن ابن الوزير ارتفع في معالجته لمشكلات العقيدة وقضاياها عن المنهج الكلامي الجدلي وعن العصبية المذهبية، ودعا إلى نصر منهج السلف وأهل السنة والجماعة كما هو واضح في كتابيه «إيثار الحق على الخلق»، و«ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان».

أما ابن الأمير محمد بن إسماعيل (١٠٩٩ ــ ١١٨٢)، فقد تبحر في مختلف العلوم وأخذ، كابن الوزير عن علماء من مختلف الفرق والمذاهب، فأهله هذا التكوين العلمي إلى أن يكون واسع الأفق متسامح الرأي غير متعصب لمذهبه الزيدي، وقد اهتم ابن الأمير بالفقه والحديث ورجحهما على علم الكلام، وشهر بكتابيه: «سبل السلام»، و«إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ». وكان متفتح الفكر على أهل السنة ومذهب السلف على الخصوص، كما تصدى للبدع والخرافات

---

(١) انظر: إيثار الحق على الخلق (ابن الوزير) ص: ٩١ وما بعدها، ترجيح اساليب القرآن، ص: ١٢٩ وما بعدها.

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، جـ ١ ص: ١٥٧، نقلاً عن الزيدية (صبحي) ص: ٥٧٦ ــ ٥٧٧.

في العقائد وهاجم أنواع الشرك والضلال في كتابه «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»[1].

أما الشوكاني (محمد بن علي ١١٧٣ ــ ١٢٥٠)، فقد شملت مؤلفاته التي تربوا على المائة، الفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والتاريخ والتراجم، ومن أشهرها، فتح القدير في التفسير، ونيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار، في الحديث. وإرشاد الفحول في علم الأصول، والقول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، وإرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات.

وقد اشتهر الشوكاني بآرائه القوية والجريئة في ذم التقليد والقول ببطلانه والهجوم على القائلين به، والدعوة إلى وجوب الاجتهاد[2]. ورغم أنه دعا إلى الإهتمام بالعلوم جميعها فإنه ذم علم الكلام وحذر من الاشتغال به، وبين ضلال من اتخذوه منهجاً لفهم العقيدة وتأسيس الإيمان، وأثبت أن أدلة هذا العلم متعارضة وأنها لا توصل إلى اليقين لأنها أدلة ظنية لا سند لها إلا العصبية المذهبية، ومن ثم جاءت أصول المتكلمين متناقضة وآراؤهم متعارضة وكل منهم يزعم أن العقل يقتضي ما يعتقده، وحاشا العقل الصحيح السالم عن تغير ما فطره الله عليه أن يتعقل الشيء ونقيضه، فإن اجتماع النقيضين محال عند جميع العقلاء فكيف تقتضي عقول بعض العقلاء أحد النقيضين، وعقول البعض الآخر النقيض بعد ذلك الاجتماع، وما هذا إلا أمر الغلط البحت الناشيء عن العصبية[3]. وفي الوقت الذي رد فيه الشوكاني على المعتزلة وعارضهم معارضة شديدة في كثير من أرائهم، فإنه أكد أن الطريق الوحيد إلى العقيدة الصحيحة هو طريق السلف ومنهجهم المتمثل في الأخذ بما جاء في القرآن والسنة، وإثبات ما أثبته تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله، ونفي ما نفاه سبحانه ونفاه عنه رسوله صلوات الله وسلامه عليه. كما حارب الشوكاني البدع والمنكرات في العقائد والعبادات فنهى عن الاستعانة بصالحي الأموات أو النذر لهم أو اتخاذ قبور الأولياء مساجد وغيرها مما وقع فيه بعض الصوفية من منكرات ومخالفات للشرع .

(١) انظر: الزيدية (صبحي) ص: ٦٢٦ ــ ٦٧٦.
(٢) انظر: القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (الشوكاني).
(٣) كشف الشبهات عن المشتبهات (الشوكاني) ص: ٢٢ / ٢٣.

وإلى جانب هؤلاء الأعلام فقد مثل هذا التيار السني السلفي أعداد كبيرة من علماء الزيدية باليمن، ويقول الشوكاني نفسه عنهم. «إن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف، يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة، ويعتمدون على ماصح في الأمهات الحديثيه، وما يلتحق بها من دواوين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام، ولا يرفعون إلى التقليد رأساً، ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة، وعدم إخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية»[١].

فرق الزيدية :

قد خلف من بعد زيد جماعات متعددة التزم بعضها بالآراء التي نادى بها زيد، وانحرف بعضها ومال عن تلك الآراء، ويذكر من هذه الجماعات أو الفرق الجارودية، والسليمانية، والصالحية :

أما الجارودية فهم أتباع أبي الجارود زياد بن المنذر الكوفي (توفي سنة ١٥٠ أو ١٦٠هـ). وقد وصف المُحدِّثون أبا الجارود بأنه كذاب ليس بثقة، وأنه كان رافضياً، يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول الله (ﷺ)، رضي الله عنهم، ويروي في فضائل أهل البيت أشياء ما لها أصول[٢]. وقال عنه ابن حجر رافضي، كذبه يحيى بن معين[٣]. ويبدو أن أبا الجارود وقع تحت تأثير الرافضة ومن ثم جاءت آراؤه وفيها كثير من التطرف والانحراف، فرغم قوله بأن النبي (ﷺ) نص على (علي) بالوصف دون التسمية، ذهب إلى أن الناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف، ولم يطلبوا الموصوف، ونصبوا أبا بكر بإختيارهم، فكفروا بذلك[٤]. وتطرفت جماعات من الجارودية أكثر من ذلك فقالت بغيبة الأئمة ونادت برجعتهم وذهبوا إلى أن محمد بن عبد الله الإمام لم يقتل وهو بعد (حي) وسيخرج ويملأ الأرض عدلاً، وزعمت طائفة أخرى من الجارودية أن علم ولد

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع (الشوكاني) جـ ٢ ترجمة محمد بن إبراهيم الوزير، ص: ٨٣.

(٢) تهذيب التهذيب (ابن حجر)، جـ ٣، ص ٣٨٦ ــ ٣٨٧.

(٣) تقريب التهذيب (ابن حجر)، جـ ١، ص ٢٧٠.

(٤) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٥٧ ــ ١٥٨. الحور العين (نشوان الحميري)، ص ١٥٥.

الحسن والحسين رضي الله عنهم كعلم النبي (ﷺ) فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة[(١)]. بل ردد بعضهم عبارات شبيهة بعبارات الرافضة في هذا الصدد فقالوا مثلاً: «الحلال حلال آل محمد (ﷺ)، والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم، وعندهم جميع ما جاء به النبي (ﷺ)، كله كاملاً عند صغيرهم وكبيرهم، الصغير منهم والكبير في العلم سواء. لا يفضل الكبير منهم الصغير[(٢)]».

ــ أما السليمانية أو الجريرية: فهم أتباع سليمان بن جرير، وقد ذهبوا إلى أن الإمامة شورى وأنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها قد تصلح في المفضول وإن كان الفاضل أفضل في كل حال. كما يثبتون إمامة الشيخين: أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[(٣)]، ولكن ذهبوا إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم، تركوا الأصلح بتركهم مبايعة «علي» لأنه أولاهم بذلك وكان ذلك خطأ، ولكنه لا يوجب كفراً ولا فسقاً، إذ أنه خطأ اجتهادي. غير أن سليمان بن جرير ذهب إلى تكفير عثمان رضي الله عنه للأحداث التي أحدثها، كما أكفر عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم، بإقدامهم على قتال «علي» رضي الله عنه[(٤)]. هذا في الوقت الذي رفض فيه آراء الرافضة في التقية والبداء[(٥)].

ــ أما الصالحية: فهم أتباع الحسن بن صالح بن حي، وهو كوفي وُلد عام ١٠٠ وتوفي عام ١٦٠هـ. وخَرَّج له البخاري ومسلم في باب الأدب ووثقه الجمهور وقيل إنه ثقة فقيه عابد، ولكنه رمي بالتشيع[(٦)]. وقد ذهب الصالحية مذهب السليمانية في الإمامة، ولكنهم توقفوا في أمر عثمان والحكم عليه بالإيمان أو الكفر، وقالوا إن الأخبار الواردة في حقه وكونه من المبشرين بالجنة توجب الحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة، بينما الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتربية بني أمية وبني مروان، واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة

(١) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٥٩.
(٢) المقالات والفرق (سعد القمي)، ص ٧٢.
(٣) مقالات الإسلاميين (الأشعري)، ص ٦٨.
(٤) إن هذا من الجهل الفاضح والعصبية العمياء فإن علياً الذي قاتله هؤلاء لم يحكم بكفرهم.
(٥) الملل والنحل جـ ١، ص ١٥٩ ــ ١٦٠. الحور العين، ص ١٥٥.
(٦) تقريب التهذيب (ابن حجر)، جـ ١، ص ١٦٧. تهذيب التهذيب جـ ٢، ص ٢٨٥ ــ ٢٨٩.

توجب الحكم بكفره. فقالوا إنا تحيَّرنا في أمره وتوقفنا في حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين[١].

الزيدية المعاصرون :

قد انقرضت هذه الفرق المتطرفة من الزيدية أو ذابت في فرق الشيعة الأخرى، وما بقى من الزيود الآن فهم متمسكون بما سبق أن أشرنا إليه من آراء في العقيدة تلتقي في جملتها مع آراء المعتزلة وأصولهم، ويتبعون في الأحكام المذهب الزيدي

والزيدية المعاصرون ينكرون أخذ مذهبهم في العقائد من المعتزلة في الأساس، وما وجد من ارتباط بين الطائفتين يعود ـــ في رأيهم ـــ إلى مجرد التوافق في الرأي. ويذهبون إلى أنهم والمعتزلة يشملهم جميعاً مصطلح عدلية، وهي كلمة تطلق ـــ كما يقولون ـــ على كل من يقول بالعدل والتوحيد، وينفي الجبر والتشبيه والتجسيم تعالى الله عن ذلك[٢].

ومهما تكن صحة هذا الرأي أو خطؤه، فإن الزيدية المعاصرين، تتفق آراؤهم إن لم تكن تتطابق مع آراء المعتزلة، فمن حيث المنهج نجدهم كالمعتزلة يُعْلون من شأن العقل في مقابل النقل، ويجعلون الحجج العقلية أصلاً لحجة السمع، ويحتجون بمثل ما احتج به المعتزلة من أن السمع عرف بالعقل ولم يعرف العقل بالسمع[٣]. والعقل عندهم يستقل بإدراك الحسن والقبح في الأعمال وهما ذاتيان، فالصدق مثلاً فيه حسن ذاتي تميل إليه الطباع، والكذب فيه قبح ذاتي تنفر عنه، ويترتب على رأي الزيدية، كما يقول واحد منهم ـــ أن الإنسان مكلف قبل ورود الشرائع، أو إذا لم تبلغه دعوة الرسل، بما يدل عليه العقل، فهو مكلف بشكر المنعم ومكلف بمكارم الأخلاق، ولو لم يصل إليه شرع في ذلك. ودليلهم على ذلك أن الناس كانوا قبل ورود الشرائع يتحاكمون إلى العقل ويتجادلون به، ولو لم يكن في الأشياء حسن وقبح ذاتيان لأفحمت الرسل، وما استطاعوا الدعوة لأنهم يطالبون الناس النظر إلى الأشياء بعقولهم، وذلك مصداق قوله تعالى: (فألهمها

---

(١) الملل والنحل جـ ١، ص ١٦١. الحور العين، ص ١٥٥.

(٢) الزيدية نظرية وتطبيق (على شرف الدين) ص: ٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص: ٤١.

فجورها وتقواها) بما ركب فيها من العقول الهادية إلى الرشاد.»[1] ولا شك أن هذا ترديد لرأي المعتزلة وأخذ بحججهم وأدلتهم.

ويستخدمون أيضاً دليل الاعراض أو ما يعرف بدليل الحوادث في إثبات وجود الله تعالى، شأنهم في ذلك شأن المعتزلة وغيرهم من المتكلمين، بدلاً من الاستناد إلى أدلة القرآن القائمة على التفكر في الأنفس والنظر في الآفاق.

وفي الصفات يفرق الزيدية، كالمعتزلة بين صفات الذات كالقدرة والعلم والوجه، وصفات الفعل كالرزق والأحياء، ويقولون بأن الصفات الذاتية لا تحتاج إلى إثبات معان زائدة ولا إلى الاعتقاد بأن أسماء الجوارح كاليد والوجه وغير ذلك حقائق. واعتبروا آيات الصفات من المتشابهات وأعطوا أنفسهم حق تأويلها، فأوّلوا الوجه بالذات، واليمين بالقوة، والساق بالشدة، والمجيء بمجيء أمر الله والكرسي علمه تعالى، وفسروا الرؤية والنظر بمعنى الانتظار، واستواء الله على عرشه بمعنى الاستيلاء والاقتدار على الملك وتنفيذ حكمه فيه، وإن السمع والبصر يعنيان العلم، إلى غير ذلك من التأويلات التي قال بها المعتزلة[2].

وآراء الزيدية في العدل تتفق إلى حد كبير مع آراء المعتزلة، وكذلك فهمهم لمعاني الهداية والضلال وغيرها من القضايا المرتبطة بأصل العدل، ويقول الزيدية بما قال به المعتزلة في الوعد والوعيد وخلود العصاة من المسلمين في النار وأن الشفاعة لا تشملهم.[3] وأصل المنزلة بين المنزلتين يدرجه الزيدية في أصل الوعد والوعيد، ويذهبون إلى أن مرتكب الكبيرة فاسق[4]. أما أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيعتبره الزيدية أهم الأصول لإرتباط قيام الدولة ونصب الإمامة به، ومن ثم فصلوا القول فيه ووضعوا الشروط التي ينبغي توفرها لنصب الإمامة الحقة.[5]

أما في الفقه والأحكام فمذهب الزيدية يعود إلى الإمام زيد وما أثر عنه من آراء

(١) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، ص: ١٣٦.
(٢) الزيدية (على شرف الدين) ص: ٥١ — ٥٥.
(٣) المرجع نفسه، ص: ٧٤ — ٧٨، تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، ص: ١٤٨ — ١٥٢.
(٤) الزيدية (على شرف الدين) ص ٨٠ — ٨١.
(٥) المرجع نفسه، ص: ٨٧ وما بعدها.

تضمنها كتاب «المجموع» المنسوب إليه والذي تلقاه أكثر علماء الزيدية بالقبول بينما طعن في صحته ونسبته إليه بعض الزيدية وكثيرون من غيرهم. وما أثر عن الإمام زيد من آراء لا تخرج في جملتها عن آراء الأئمة والفقهاء الذين عاصروه، ومستنده الأول فيها القرآن والسنة والاجتهاد، ثم جاء المجتهدون في المذهب من بعده واستنبطوا من الفروع التي أثرت عنه وعن غيره أصولاً سميت بأصول الزيدية أو أصول الفقه الزيدي. والزيدية في أصولهم يقررون ما يقرره الفقهاء والأصوليون، إذ أنهم يأخذون بالكتاب أولاً، ثم بالسنة ثانياً، فإن لم يكن كتاب ولا سنة في المسألة يلجأون إلى القياس، ويدخلون في القياس الاستحسان والمصالح المرسلة. ثم بعد ذلك يجيء العقل، فما يقرر العقل حسنه يكون مطلوباً وما يقرر العقل قبحه يكون منهياً عنه، وذلك إذا لم يوجد أي سبيل من سبل الاستدلال.(1)

والزيدية المعاصرون يذهبون إلى أن ما يعرف بالمذهب الزيدي في الفقه لم يكن مذهب إمام معين، ولكنه خلاصة أبحاث عميقة ودراسات واسعة في كل مجالات الفقه الإسلامي، وجهود مضنية استمرت في البحث والتنقيب أكثر من سبعة قرون، وقام بتلك الأبحاث والدراسات أئمة أعلام من أهل البيت النبوي الشريف ومن تابعهم من الفقهاء المجتهدين، معتمدين في كل ذلك على المحكم من كتاب الله، والصحيح من سنة رسول الله والقياس والاجماع، وأحياناً على الاستصحاب والاستحسان والمصالح المرسلة»(2).

والمذهب الزيدي في أصوله وفروعه لا يخرج عن إطار مدارس الفقه الإسلامي ومذاهبه، ومواطن الاختلاف بين الزيدية والسنة في مسائل الفروع لا تكاد تذكر(3).

(1) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية (أبو زهرة) ــ ص: ٤٩٤ ــ ٤٩٥.
(2) انظر الزيدية (علي شرف الدين) ص: ١٤، تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، ص ١٦٦ــ ١٦٧.
(3) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن، ص: ٢١٢ ــ ٢٢١.

الفصل السادس

الإسماعيلية (الباطنية) (*)

أصولهم، عقائدهم، وأهم فرقهم

أصل الإسماعيلية :

ينتسب الإسماعيلية إلى إسماعيل[1]، الابن الأكبر لجعفر الصادق. وقد تفرعت هذه الطائفة من الشيعة الإمامية بعد موت جعفر عام ١٤٨هـ. إذ أن من تسموا بالإسماعيلية لم يعترفوا بإمامة موسى الكاظم، الإمام السابع للإثنى عشرية،

(١) يعرف إسماعيل بالأعرج، وكان أكبر إخوته وتوفي في حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض في المدينة المنورة، ودفن بالبقيع في سنة ١٤٥هـ، وهو الراجح، وقيل في سنة ١٣٨هـ، انظر: عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن وطه شرف)، ص: ٣٠ هامش (١).

(*) الباطنية: لقب عام تنطوي تحته طوائف عديدة تلتقي جميعها في تأويل النصوص الظاهرة وإثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص وإخراجها عن معانيها الظاهرة، مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه العملية. ويقول الغزالي في ذلك: «وأما الباطنية فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معيّنة. وأن من تقاعد عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها مسارعاً إلى الاغترار، كان تحت الأواصر والأغلال مُعَنًّى بالأوزار والأثقال. وأرادوا بالأغلال التكليفات الشرعية، فإن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه... إلخ. وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر، قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يُرْجَع إليه ويُعَوَّل عليه». انظر: فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ١١ / ١٢، وقد أدرك مؤرخو الفرق الإسلامية الارتباط الفكري والحركي بين هذه الحركات الباطنية، ومن ثم اعتبروها واجهات مختلفة لمذهب واحد. فابن الجوزي يقول عن القرامطة: «وأما ألقابهم فإنهم يسمون الإسماعيلية والباطنية والقرامطة والخُرّمية والبابكية والمُحَمِّرة والسبعية والتعليمية».

وساقوا الإمامة بدلاً عنه إلى إسماعيل أو ابنه محمد. وقد اختلف الشيعة أنفسهم في الأسباب التي دعت بجعفر الصادق إلى تحويل الإمامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه الآخر موسى: فهناك من يذهب إلى أن جعفراً قد تبين له بعد أن عقد البيعة لإسماعيل، أنه لم يكن بالرجل الذي يصلح لتولي الإمامة من بعده، إما لسلوكه الأخلاقي لإدمانه الخمر وولعه بالنساء أو لارتباطه ببعض المذاهب المنحرفة والدعوات المتطرفة كالخطابية[1]، التي ادعى أتباعها ألوهية جعفر بن محمد كما

= انظر: القرامطة (ابن الجوزي) ص ٣٥، ويورد الغزالي قبله نفس هذا الرأي، فيقول عن ألقابهم التي تداولتها الألسنة على اختلاف الأعصار والأزمنة وهي عشرة ألقاب: الباطنية والقرامطةوالقرمطية والخُرَّمية والخُرّمْدينية والإسماعيلية والسبعية والبابكية والمُحَمِّرة والتعليمية ولكل لقب سبب... إلخ». فضائح الباطنية، ص ١١. ويرى الشهرستاني أن أشهر ألقابهم الباطنية، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً، ولكل تنزيل تأويلاً، ولهم ألقاب كثيرة سوى هذا على لسان قوم قوم. فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان: التعليمية والملحدة»، الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٢. فالإسماعيلية إذن سموا بالباطنية لارتباطهم بالتيار الباطني العام القائم على فكرة الظاهر والباطن، ولأنه في ظل الحركة الإسماعيلية نمت وفرخت العديد من الحركات الباطنية، كالقرامطة والأغاخانية والدروز والبهرة... إلخ.

وقد صور محمد زاهد الكوثري واجهات هذا التيار الباطني على اختلاف البلاد والأمصار فقال: «ولمذهب هؤلاء ألقاب على اختلاف البلدان، أشهرها الباطنية لزعمهم أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً.. انسلاخاً من الدين. ويعرفون في العراق باسم القرامطة، جمع قرمطي، نسبة إلى قرمط، وباسم المزدقية (المزدكية) أيضاً بالنظر إلى أنهم يدينون بدين الاشتراك في الابضاع والأموال الذي ابتدعه مزدق (مزدك) في عهد قباذ الساساني. ويسمون في خراسان بالتعليمية والملاحدة والميمونية نسبة إلى ميمون أخي قرمط السابق ذكره دون ميمون بن ديصان لأنه ليس بفرع بل هو أصل البلاء كله. ويدعون في مصر بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله المعروف. وفي الشام بالنصيرية والدروز والتيامنة، وفي فلسطين بالبهائية، وفي الهند، بالبهرة والإسماعيلية، وفي اليمن باليامية نسبة إلى القبيلة المعروفة، وفي بلاد الأكراد بالبكداشية والقزلباشية، على اختلاف منازعهم. وفي بلاد العجم بالبابية، ولهم فروع إلى يومنا هذا تلبس لكل قرن لبوسه، وتظهر لكل قوم بمظهر تقضي به البيئة. وقدماؤهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية باعتبار تميزهم عن فرق الشيعة بهذا الاسم». انظر: كشف أسرار الباطنية (محمد بن مالك الحمادي)، ص ١٨.

(١) انظر: عبيد المهدي (حسن إبراهيم حسن) ص ٣٣ / ٣٤، أصول الإسماعيلية (برنارد لويس)، ص ٧٠ / ٧٨.

سبق أن أشرنا. وقد أنكر الإسماعيلية فيما بعد هذه التهمة وما بُنِيَ عليها من رأي، وقالوا إنها لو ثبتت فإنها لا تفسد العصمة ولا تسقط حق من مارسها في الإمامة، بل يمكن أن تؤول في إطار المفهوم العام لعصمة الأئمة، ومن ثم تمسك الإسماعيلية بإمامة إسماعيل واعتبروه الإمام المشروع بعد جعفر. وهناك رواية تذهب إلى أن إسماعيل توفى في حياة أبيه، ومن ثم نقلت الإمامة إلى أخيه موسى. وقد رفض الإسماعيلية هذا الزعم منكرين وفاة إسماعيل قبل أبيه، وقالوا حتى لو ثبتت وفاة إسماعيل قبل أبيه، فإن الإمامة لا ينبغي أن تنقل إلى أخيه، بل ينبغي أن تذهب إلى ولده محمد، لأن الإمامة لا تكون إلا في أعقاب الأئمة وأولادهم وغير جائز أن تنقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة واحدة هي حالة الحسن والحسين، واستشهدوا لهذا بالآية الكريمة (وجعلها كلمة باقية في عقبه)[1] ، مفسرين الكلمة بأنها تعني الإمامة. ورواية ثالثة يرويها الإسماعيلية ويدافعون عنها، تذهب إلى أنَّ إسماعيل لم يمت في حياة أبيه، بل أطلق أبوه خبر وفاته وأثبتها بوثائق مكتوبة، تقيةً، وخوفاً على حياة ابنه من العباسيين الذين كانوا يلاحقون أهل البيت ويضطهدونهم. ويزعم هؤلاء أن إسماعيل رؤي بالبصرة بعد وفاة أبيه ومن ثم لا مبرر للقول بسقوط الإمامة عنه[2].

ولم تختلف الآراء وتتعدد حول هذه القضية فحسب، بل إننا نجد اضطراباً في الرأي، واختلافاً في وجهات النظر حول أشياء عدة تتصل بتاريخ طائفة الإسماعيلية وبداية تكونها، وحقيقتها، والأهداف التي ترمي إليها. ذلك أنه لم يرد في التاريخ ما يحدد كيف بدأت الدعوة إلى إمامة إسماعيل ومن الذين تبنوا هذه الدعوة. ويقال إنَّ هذه الدعوة الإسماعيلية بدأت في أحضان الخطابية، الذين سبق أن أشرنا إلى اتهام إسماعيل بالارتباط بهم، وأنهم هم الذين نادوا بإمامته، وأغروا ابنه محمداً بالدعوة لنفسه بعد أبيه، كما ذكر أيضاً أن محمد بن إسماعيل قد اضطر إلى الهجرة من المدينة إلى خوزستان ثم إلى بلاد الديلم[3]. وأنَّ أخباره قد انقطعت

(١) سورة الزخرف، الآية ٢٨.

(٢) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين)، ص ١١ / ١٣.

(٣) يقال أن محمد بن إسماعيل استقر في قرية من قرى الري تسمى سمحلا، ثم نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد أباد، كما قيل إن الذي دفعه إلى الهجرة عدة أسباب من بينها المراقبة الشديدة، التي فرضت عليه من عيون الخليفة هارون الرشيد، فآثر الهجرة تفلتاً من هذه المراقبة، انظر: نشأة الفكرة الفلسفي في الإسلام، جـ ٢، ص ٣٨٢ وما بعدها،اعبيد الله المهدى، ص ٣٧ / ٣٨.

في تلك النواحي ولم يسمع عنه شيء بل لم يسمع شيء عن ما يسمى بالإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث للهجرة، حيث ظهر القرامطة يدعون إلى أئمتهم، كما تنوقلت الأخبار، عن أن أسرة محمد بن إسماعيل وفدت على بلاد الشام واستقرت في مدينة سَلَمية بالقرب من حمص.. السورية، وكانوا متسترين في هيئة تجار، ومن هناك بدأوا يرسلون دعاتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي يبشرون بقرب ظهور «المهدي المنتظر» من نسل إسماعيل بن جعفر[1].

وقد أطلق مؤرخو الإسماعيلية على هذه الفترة الغامضة من تاريخهم «دور الستر». ويستمر هذا الدور حتى ظهور الدولة الفاطمية التي تولى فيها الأمر أئمة يَدَّعُون، الانتساب إلى «محمد بن إسماعيل». ولكن روايات المؤرخين عن دور الستر هذا غامضة ومضطربة وتبدو الأحداث فيها مختلفة ومشوشة، بل إن الروايات اختلفت اختلافاً بيّناً حول عدد أئمة هذه الفترة وأسمائهم، فذهب بعضهم إلى أنهم ثلاثة، وقال آخرون بأنهم خمسة وبلغ بهم فريق آخر إلى سبعة أئمة وهم: اسماعيل، محمد، عبد الله، محمد، احمد، الحسين، محمد القائم.

وقد أثار هذا الاضطراب والغموض كثيراً من الشكوك حول بداية هذه الدعوة من ناحية، وحول الأئمة القائمين بأمرها ومدى ارتباطهم بإسماعيل بن جعفر وارتباط الأئمة الفاطميين بهم من ناحية أخرى.

وأمام انعدام مصادر تاريخية موثوق بها عن هذه الفترة قدمت العديد من النظريات والآراء حول هذه القضايا ليس هناك ما يرجح إحداها على الأخرى. ومن بين هذا الآراء حول بداية ظهور الإسماعيلية، ما ذهب إليه أحد دارسي الإسماعيلية، من احتمال أن يكون بعض الإمامية الإثنى عشرية هم الذين دفعوا هذه الدعوة الإسماعيلية إلى الظهور لا سيما وأن ظهورها تزامن مع اختفاء آخر إمام من أئمتهم (٢٦٠هـ) فأدى هذا الاختفاء أو الغيبة إلى أن يتجه الإثنا عشرية إلى فرع إسماعيل ىيعترفوا بأئمتهم ويدعون لهم[2]. وإلى مثل هذا الرأي يذهب حسن إبراهيم حسن، الذي يرى أن الإمامية الإثنى عشرية ملوا عودة الإمام الثاني عشر، فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يترقب

---

(١) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين)، ص ١٥/٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١.

الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملأ الأرض عدلا، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر الذي طالت غيبته وغدا ظهوره في نظرهم أمراً بعيد الوقوع[١]. وهذا الرأى قد يكون صحيحاً في وقت متأخر عن القرن الثالث الهجري، وبعد أن طالت الغيبة وقنط بعض الشيعة من الانتظار، قد يكون بعض الإمامية الإثنى عشرية انضم إلى الإسماعيلية ودعم حركتهم مفضلاً لإمام حي يعمل للدنيا، عن إمام مخفي في سرادب، كما يقول النشار[٢]. ولكن لا يتوقع أن يكون هذا التحول قد حدث في بداية الدعوة الإسماعيلية التي أخذت وقتاً طويلاً تعمل في الكتمان والسر. والذي يظهر من استقراء ما ورد عن الحركة الإسماعيلية، أن هذه الدعوة لها جذور عميقة تمثلت في الحركات الباطنية ابتداء من الخطابية، وما شابهها من حركات هدامة كالبابكية، والتي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني، والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة[٣]. وقد اتخذت هذه الحركات من التشيع ستاراً جَمَّعت من خلفه قواها للهجوم على الإسلام، ثم ظهرت على حقيقتها في حركات القرامطة وابن حوشب باليمن، وأخيراً في الدولة الفاطمية (أو العبيدية). وهذ التفسير قد يوضح لنا الارتباط بين هذه الحركات جميعها على اختلاف أسمائها، والتقائها جميعاً في الغاية والهدف والأسلوب والمنهج.

أما أئمة الإسماعيلية فقد أثيرت شكوك كثيرة حولهم وحول مدى ارتباطهم بإسماعيل بن جعفر، ومما أكد هذه الشكوك، ما أورده بعض المؤرخين من أنّ محمد بن إسماعيل لم يعقب ولم يخلف ابناً. وعليه فإن دعوى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية أنه من نسل إسماعيل يعتبرها البعض دعوى زائفة. ولحل هذا المشكل، والكشف عن هوية عبيد الله المهدي وبيان كيف انتقلت إليه الإمامة من محمد بن إسماعيل، قدمت العديد من النظريات من بينها: أن عبيد الله المهدي ابن لرجل يهودي كان حداداً ب «سَلَميه» وترملت أمه فتزوجها أحد الأشراف العلويين وربى هذا الغلام، فلما كبر ادعى لنفسه نسباً علوياً ودعا الناس إليه[٤].

(١) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إبراهيم حسن)، ص ٣٦/٣٠.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ٢ ص ٣٦٣.

(٣) الفرق بين الفرق، ص ٢٨٢ / ٢٨٥.

(٤) وممن ذهب إلى هذا الرأي الشريف العلوي محسن محمد بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وتبعه الباقلاني، وابن خلكان والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم.

وإذا استبعدنا هذا الرأي على أساس أنه محاولة لتجريح «الفاطميين»، فإن هنا‌ا رأياً آخر يبدو فيه كثير من الصدق وأوجه الصحة إذ أنه يحاول ربط الإسماعيل‌ بالحركات الباطنية نسباً وفكراً، ويستند إلى رواية تذهب إلى أن عبيد الله المهد‌ي من نسل ميمون بن ديصان القداح، الذي كان مولى لجعفر الصادق، وكان عل‌ى صلة ما ــ كما كان إسماعيل بن جعفر ــ بالخطابية. وتقول هذه الرواية إن الذي تولى الأمر بعد ميمون ابنه عبد الله الذي ادعى النبوة، وكان له نشاط واسع ودع‌اة منتشرون في فارس وأنحاء البصرة وخراسان وكان هو نفسه يتنقل من مكان إل‌ى آخر حتى استقر به المقام في «سَلَمية»، ومنها بث بعض دعاته إلى الكوفة حي‌ث وجدت دعوته تربة صالحة إذا تبناها حمدان قرمط ونمت وأثمرت حركة القرامطة وكان عبد الله بن ميمون القداح يدعو للإمام المستور من نسل إسماعيل، ول‌ما توفي خلفه في الدعوة إبنه محمد بن عبد الله، وبعد وفاة محمد حدث اختلاف حول من يلي الأمر بعده، وانتهى بأن تولى الأمر سعيد بن الحسن بن عبد الله ب‌ن ميمون، حفيد عبد الله بن ميمون القداح. وسعيد هذا هو الذي تقمص شخصي‌ة عبيد الله المهدي وأطلقها على نفسه وادعى الانتساب إلى محمد بن إسماعي‌ل وانتقل من سَلَمية إلى اليمن، ومنها إلى مصر وشمال إفريقية، حيث سبقته الدعو‌ة هناك، ونجح في تأسيس الدولة الفاطمية في واقع الأمر. وهذه الرواية تكشف أ‌ن الأيدي الخفية التي أظهرت القرامطة والفاطميين وغيرهم من الحركات الباطنية آنذا‌ك تتصل جميعها بشخصية عبد الله بن ميمون القداح. وبناء على هذا الرأي فإن أئم‌ة الدولة «الفاطمية» ينحدرون من سلالة ميمون القداح، وأنه لا صلة لهم بمحم‌د بن إسماعيل ونسل فاطمة، وينبغي من ثم تسمية هذه الدولة بالدولة العبيدية نسب‌ة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي، بدلا من تسميتها بالدولة الفاطمية(١).

وفي مقابل هذا التفسير وما بني عليه من نتائج، يذهب رأي آخر إلى الإقرا‌ر بأن عبيد الله المهدي من نسل ميمون القداح، وأنه لا صلة له بسلالة محمد ب‌ن إسماعيل، ولكن من أتى بعده من الخلفاء ينتمون إلى سلالة محمد بن إسماعيل. ويحاول أصحاب هذا الرأي إثبات ذلك في ضوء نظريات الإسماعيلية حول التبني الروحي، ومبدأ الإمام «المستقر» «والمستودع»(٢). إذ أن الإسماعيلية يؤمنون بمبد‌أ

(١) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إبراهيم حسن)، ص ٥٩ / ٦٥.

(٢) أصول الإسماعيلية (برنارد لويس)، ص ٨٦ وما بعدها.

التبني الروحي، وحينما يقولون إن فلاناً بن فلان يقصدون بُنوته الروحية لا الجسمانية، كما يقولون إن فلاناً أبو فلان ويقصدون الناحية الروحانية. وعليه فإن انتماء أبناء ميمون القداح ومنهم عبيد الله المهدي إلى بيت إسماعيل إنما هو انتماء روحي. كما يعتقد الإسماعيلية أيضاً أن هناك أئمة استيداع يقومون بحمل الوديعة (الإمامة) دون نقلها إلى سواهم من سلالتهم ويميزون بين الإمام المستودع الذي يتسلم الإمامة لظروف استثنائية ولا يحق له توريثها لأحد من ولده، وبين الإمام المستقر الذي له الحق بتوريث الإمامة لولده وصاحب النص على الإمام الذي يأتي بعده[1]. وبناء على هذه النظرية، فإن ميمون القداح وسلالته من بعده كانوا أئمة استيداع فكان سعيد بن الحسين إماماً مستودعاً حمل الوديعة من الإمام الحسين ليحفظها ثم ينقلها إلى ابنه القائم[2]. وتؤيد الكتب الباطنية الإسماعيلية هذا الرأي إذ تذهب إلى أن عبيد الله المهدي لم يكن الإمام المستور الحسين بن أحمد، كما لم يكن القائم بأمر الله ابناً لعبيد الله المهدي، وإنما كان ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد وأن المهدي حمل الوديعة (الإمامة) من الإمام الحسين بن أحمد وردها عند وفاته إلى ابنه القائم أول خليفة فاطمي من سلالة علي الحقيقيين. ويقول صاحب كتاب «غاية المواليد» أنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب، سار ولي الله في أرضه علي بن الحسين صلوات الله عليه!! يريد بلاد المغرب حتى كان في بعض الطريق، فأظهر الغيبة واستخلف حجته سعيداً الملقب بالمهدي سلام الله عليه.. فلما حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة إلى مستقرها، وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى وجرت الإمامة في عقبه[3]». وهذا التفسير يحل مشكلة نسب الفاطميين .ويثبت أن أئمة الدولة الفاطمية علويون نسباً ما عدا مؤسس الدولة عبيد الله المهدي فإنه ينتمي إلى سلالة ميمون القداح[4]. وعلى فرض صحة هذا التفسير فإنه يتضمن أن سلالة ميمون القداح كانت وراء الحركة التي أدت إلى ظهور الدولة الفاطمية.

---

(١) كتاب الينابيع (أبو يعقوب السجستاني)، مقدمة، ص ٢٥.

(٢) عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن) ص ٨١، أصول الإسماعيلية (لويس) ص ٩٣ / ٩٩.

(٣) غاية المواليد من المنتخب، ص ٣٧، نقلاً عن (عبيد الله المهدي)، ص ٨٢.

(٤) عبيد الله المهدي، ص ١٦٩، في مقال جيد بعنوان: «قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي» أورد د. عبد الحليم عويس معظم الآراء المتعارضة حول نسب =

عقائد الإسماعيلية (الباطنية) :

تضم الشيعة الإسماعيلية، كما سبق أن رأينا طوائف متعددة وجماعات مختلفة تلتقي جميعها في منهجها الباطني وتختلف بعد ذلك قرباً وبعداً، لا من التصور الإسلامي الصحيح، بل من التيار الشيعي العام. وتعتبر الحركات التي انضوت تحت لواء الإسماعيلية امتداداً فكرياً منظماً للحركات الشيعية الغالية التي سبق ذكرها، وتهدف الحركات الإسماعيلية، كما سعت الحركات الغالية إلى إبطال العقيدة الإسلامية وإلى إبطال الشرع وهدم أحكامه. وقد تبنت هذه الفرق الباطنية بعض مبادىء الفلسفة اليونانية واستفادت من بعض المذاهب والنحل الشرقية، وحاولت مزج هذه المبادىء والآراء ببعض التصورات الإسلامية للوجود والألوهية، وربطت هذا كله بنظرية الإمامة عند الشيعة. وقد نبه الشهرستاني من قبل إلى هذا الأثر الفلسفي عند الباطنية فقال: «إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج[1]». وأكد الغزالي أيضاً أن آراء الباطنية في الإلهيات مسترقة من الثنوية والمجوس في القول بإلهين، ومن كلام الفلاسفة في المبدأ الأول، وأن مذاهبهم في النبوات مستخرجة من مذاهب الفلاسفة في النبوات مع تحريف وتغيير، وأن مذهبهم في المعاد موافق لآراء الثنوية والفلاسفة في الباطن وللروافض والشيعة في الظاهر[2].

وتؤكد الدراسات الحديثة للفكر الإسماعيلي الباطني ما ذهب إليه الشهرستاني والغزالي، إذ يذهب النشار، في دراساته للشيعة الإسماعيلية، إلى القول بأن أحد مصادر الإسماعيلية الرئيسية، الأفلاطونية المحدثة، والفيثاغورية المحدثة، وأن الإسماعيلية أخذت مبادئها وعقائدها من الفلسفة اليونانية كما صورها المسلمون مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية إضافة إلى بعض العناصر المجوسية[3].

= الفاطميين.. ورغم أنه رفض ربط الفاطميين باليهود أو النصارى فإنه ذهب إلى أنهم قرامطة مشعوذون ركبوا الدعوة إلى أهل البيت للوصول إلى الحكم، وتجاهل الرأي الذي يحاول حل المشكلة في ضوء نظرية الشيعة عن الإمام المستودع والمستقر وفكرة التبني الروحي.. انظر مجلة كلية العلوم الاجتماعية (جامعة الإمام) العدد رقم ٦ (١٤٠٢ / ١٩٨٢)، ص ١٣٧ / ١٨٩.

(١) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٢ / ١٩٣.

(٢) فضائح الباطنية، (الغزالي)، ص ٤٠، ٤٢، ٤٦.

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) جـ ٢، ص ٤١٦.

ويظهر هذا الأثر التلفيقي واضحاً في رسائل إخوان الصفاء التي أثبت البحث الحديث أنها إسماعيلية مصدراً وغاية، وباطنية فكراً ومنهجاً[1]. كما يظهر بجلاء أيضاً في كتب الإسماعيلية الخالصة «كراحة العقل» للداعي الإسماعيلي أحمد بن حميد الدين الكرماني (توفى بعد (عام ٤٠٨هـ)، و«تحفة المستجيبين» و«الينابيع» لأبي يعقوب السجستاني (٢٧١/٣٣١هـ)، و«الأصول والأحكام» للداعي الإسماعيلي ابن زهرة (توفى سنة ٤٩٧هـ)، وفي كتابات أبي سليمان السجستاني المنطقي، والمؤيد في الدين الشيرازي وغيرهم من دعاة المذهب الإسماعيلي.

---

(١) تضم رسائل إخوان الصفاء ألواناً عديدةً من العلوم والمعارف كاللغة والحساب والهندسة والجغرافيا والكيمياء والموسيقى إلى جانب الأبحاث الطبيعية والإلهية وأبحاث حول النفس والوحي والرؤى وغيرها من الموضوعات والعلوم. ويذهب كتاب هذه الرسائل إلى أن الشريعة الإسلامية قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات وأنه لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، كما ذهبوا إلى أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال. إخبار العلماء بأخبار الحكماء (القفطي) ص ٨٣ — ٨٤. إلى غير ذلك من الآراء التي تحمل طابعاً باطنياً يهدف إلى هدم الشرع والتحلل من أحكامه واستبدال الإسلام بدين جديد مستمد من مصادر غنوصية وفلسفات وثنية وديانات ومذاهب مختلفة.

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نسبة هذه الرسائل إلى أشخاص ظهروا خلال القرن الرابع الهجري كزيد بن رفاعة، وأبي سليمان محمد بن أبي معشر البستي، وأبي الحسن علي ابن هارون الزنجاني، وأبي أحمد المهرجاني، والعوفي وغيرهم، وهؤلاء أشخاص مجهولون لا تعرف هويتهم ولا مذاهبهم، الأمر الذي حدا بالباحثين المعاصرين إلى محاولة استكشاف حقيقة مؤلفي هذه الرسائل نفسها. وقد لاحظ معظم الدارسين أن هناك ارتباطاً ما بين كتاب هذه الرسائل ودوائر الشيعة الإسماعيلية: راجع مثلاً إخوان الصفاء (عمر فروخ)، وإخوان الصفاء (عمر الدسوقي). كما أثبت الكاتب الإسماعيلي عارف تامر، في كتابه (حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء)، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه الرسائل هي إنتاج إسماعيلي، وأن إخوان الصفاء ينتمون إلى طائفة الإسماعيلية، بل إنهم أول من وضع الفلسفة الإسماعيلية وركز دعائمها. وقد قارن تامر، ما ورد في هذه الرسائل بما عرف من مصادر إسماعيلية، كدعائم الإسلام، للقاضي الإسماعيلي الفقيه النعمان ابن حيون، وكتابات دعاة الإسماعيلية، كالكرماني، والسجستاني والمؤيد في الدين الشيرازي، فوجد توافقاً وتطابقاً بين هذه المصادر =

وفي هذه الآثار جميعاً يتجلى الأثر الباطني، ومنها جميعاً يمكن استخلاص تصور واضح لعقائد الإسماعيلية ومبادئهم، والمتمثلة في آرائهم حول الوجود والألوهية وصفات الله تعالى وعلاقته بالكائنات وتصوراتهم حول الإمامة والنبوة والمعاد وغيرها من التعاليم التي دانوا بها.

أما آراؤهم حول ذات الله تعالى وصفاته فمستمدة ــ كما قال الغزالي ــ من آراء الفلاسفة، إذ أنهم تبنوا نظرية الفيض الأفلوطينية التي رتبت الوجود ترتيباً يقف في أوله المبدأ الأول (الله سبحانه وتعالى) ثم العقل الكلي، ثم النفس الكلية، ثم المادة، وذهبوا إلى أن العلاقة بين هذه الموجودات وبين الله سبحانه وتعالى، ليست علاقة خلق أو إيجاد من الله بل علاقة فيض أو صدور، بمعنى أن المبدأ الأول فاض منه العقل الكلي، ومن العقل الكلي صدرت النفس الكلية، ثم العالم المادي

= الإسماعيلية، ورسائل إخوان الصفاء في أسلوب المخاطبة ومنهج الدعوة، وفي العبارات والألفاظ، والتبشير بظهور إمام فاطمي، وفي فلسفة الوجود ونظرية الخلق، وفي التأويل والقول بالظاهر والباطن، وغيرها من المعتقدات والآراء الإسماعيلية.

ومن قبل ذهب بعض المؤرخين، كما يقول القفطي، إلى أن هذه الرسائل وضعها بعض أئمة الإسماعيلية مع اختلافهم في اسمه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٨٢ ــ ٨٣). وقد ذكر بعض هؤلاء، اسم الإمام الفاطمي الإسماعيلي المستور أحمد بن عبد الله، كمؤلف لهذه الرسائل أو كراع لتأليفها وأمر به. ويميـل النشـار إلى هذا الرأي إذ يقرر أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفاء عمل إسماعيلي بحت، وكان يُتَّخَذ أداةً لنشر الدعوة الإسماعيلية (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، جـ ٢، ص ٣٩٢) ويقول أيضاً: «لا شك أن رسائل إخوان الصفاء هي إسماعيلية سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم أتباعه، تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلي (نشأة الفكرة الفلسفي، جـ ٢، ص ٣٩٠). ويقرر النشار، ويتفق في هذا مع عارف تامر، أن الدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان في عهد الإمام أحمد سواء أكانت من وضعه أو بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآنا بعد القرآن أو هي قرآن العلم، كما أن القرآن قرآن الوحي، أو قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة. (نشأة الفكر الفلسفي جـ٢، ص ٣٨٩).

وهذا يؤكد خطر هذه الرسائل وأثرها المدمر في مختلف مناحي الفكر الإسلامي ويكشف خطر الأيدي الخفية التي صاغتها وجهدت في نشرها وتطبيق تعاليمها. أنظر أخبار العلماء (القفطي)، ص ٨٤ ــ ٨٥.

من النفس الكلية[1]». وقد أخذ الإسماعيلية بنفس هذه النظرية مع اختلاف طفيف في العبارات والمصطلحات، ورغم قولهم بوجود الله تعالى، فإنهم ذهبوا إلى تجريده تعالى من كل صفة ونعت مما يمكن أن يكون له صلة بالكائنات أو صلة لها به، وبلغوا حداً نفوا فيه إطلاق كلمة «وجود» عليه تعالى، زاعمين بذلك أنهم ينزهون الله تنزيهاً مطلقاً. إذ أن الوصف في زعمهم يقتضي التشبيه والشركة معه تعالى، فقالوا: إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز، وكذلك في جميع الصفات فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه تعالى وبين سائر الموجودات في الجهة التي أطلقنا عليه، وذلك تشبيه. وزعموا ان الصفات ليست لها معان ايجابية، بل هي تعبير عن علاقة الله بالكائنات ومن ثم انكروا حقائقها»، ونقلوا في هذا المعنى نصاً نسبوه إلى محمد بن علي (الباقر) قال فيه: «لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ــ فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم أو وصف بالعلم والقدرة. قالوا وكذلك نقول في القدم أنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته[2]». وقد وُصف الإسماعيلية من أجل ذلك بأنهم نفاة الصفات حقيقة، معطلة الذات عن جميع الصفات، بل يذهب الغزالي إلى أن هدفهم النهائي وغايتهم هو إنكار وجود الله تعالى، وأنهم لجأوا إلى هذه الحيلة حتى لا يتهموا في دينهم: «إن الإسماعيلية يتطلعون في الجملة لنفي الصانع، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم بل منعوا الناس من تسميته موجوداً، وهو عين النفي مع تغيير العبارة لكنهم تحذقوا فسموا هذا النفي تنزيهاً، وسموا مناقضه تشبيهاً حتى تميل القلوب إلى قبوله[3]».

ويبدو الأثر الأفلوطيني أكثر وضوحاً لدى الإسماعيلية في تفسيرهم لوجود المخلوقات وعلاقتها بالله تعالى إذ أنهم ذهبوا كما ذهبت الأفلوطينية إلى القول بوسائط بين الله وبين الكائنات، وأن الله لم يخلق الأشياء خلقاً مباشراً بل إنه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل واستشهدوا في هذا بالحديث الموضوع:

(١) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٣٨ / ٤٠. تاريخ الفلسفة اليونانية (يوسف كرم)، (ط.، رابعة . ١٣٧٨ / ١٩٥٨م. ص ٢٨٨ / ٢٩٦.

(٢) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٣.

(٣) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص، ٣٩.

«أول ما خلق الله العقل، فقال له اقبل فأقبل وقال له ادبر فأدبر.. إلخ»[1]. وأضاف الإسماعيلية إلى هذا العقل كل صفات الكمال الإلهية، فهو الخالق المصور الواحد القهار، وأنه هو الموجود الأول الأزلي، والمبدع الأول والعقل الكلي، وأنه هو الذي رمز إليه الله تعالى بالقلم في قوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون)[2]. وأن هذا العقل أو القلم هو الذي أبدع النفس الكلية، ونسبة النفس هذه إلى العقل، إما نسبة النطفة إلى تمام الخلق، والبيض إلى الطير، وإما نسبة الولد إلى الوالد، والنتيجة إلى المنتج، وإما نسبة الأنثى إلى الذكر والزوج إلى الزوج»[3]. وجعل الإسماعيلية للنفس الكلية جميع الصفات التي أضفوها على العقل الكلي، إلا أن العقل أسبق في الوجود من النفس ومن ثم سمي بالسابق وسميت النفس بالتالي. وهذه النفس والعقل هما مصدر الكائنات جميعاً، ويقول في ذلك السجزي: «العقل أول خلق ظهر من أمر الله.. ولم يوجد البارىء في أول الخلق غير العقل وحصر في جوهره صور المبدعات كلها كي لا يذهب شيء منها... ويسمى أحياناً بالقلم والعرش والأول والهيولي... وأن النفس هي الخلق الثاني والمنبجس من الخلق الأول.. والعقل والنفس هما الأصلان، إليهما مرجع

---

(١) رسالة الأصول والأحكام (ابن زهرة، الداعي الإسماعيلي حاتم بن عمران بن زهرة (توفي سنة ٤٩٧هـ) نقلاً عن: نشأة الفكر الفلسفي (النشار)، جـ ٢، ص ٤٠٩، حديث العقل حديث موضوع، وقد أورده ابن الجوزي بأسانيد مختلفة، وقال هذا حديث لا يصح عن رسول الله (ﷺ)، انظر: كتاب الموضوعات (أبي الفرج بن الجوزي)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط. أولى ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، جـ ١، ص ١٧٤. وقد أورد السيوطي أيضاً، في اللآلىء المصنوعة عدة روايات لهذا الحديث وبين اتفاق العلماء على أنها موضوعة، انظر: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (جلال الدين السيوطي، توفي سنة ٩١١هـ)، دار المعرفة، ط. ثالثة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، جـ ١، ص ١٢٩ ـــ ١٣٢. وقد بين العلماء أن أحاديث العقل الموضوعة أو الضعيفة هذه قد أخرجها داود بن المحبر في كتاب العقل ونقلها غيره، وداود هذا كذاب، انظر: المقاصد الحسنة (السخاوي، توفي سنة ٩٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ١١٨، الموضوعات (علي القاري، توفي سنة ١٠١٤هـ)، حققه محمد الصباغ، دار الأمانة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص ١٣٧.

(٢) سورة القلم، الآية ١.

(٣) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٣.

من النفس الكلية[1]». وقد أخذ الإسماعيلية بنفس هذه النظرية مع اختلاف طفيف في العبارات والمصطلحات، ورغم قولهم بوجود الله تعالى، فإنهم ذهبوا إلى تجريده تعالى من كل صفة ونعت مما يمكن أن يكون له صلة بالكائنات أو صلة لها به، وبلغوا حداً نفوا فيه إطلاق كلمة «وجود» عليه تعالى، زاعمين بذلك أنهم ينزهون الله تنزيهاً مطلقاً. إذ أن الوصف في زعمهم يقتضي التشبيه والشركة معه تعالى، فقالوا: إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز، وكذلك في جميع الصفات فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه تعالى وبين سائر الموجودات في الجهة التي أطلقنا عليه، وذلك تشبيه. وزعموا ان الصفات ليست لها معان ايجابية، بل هي تعبير عن علاقة الله بالكائنات ومن ثم انكروا حقائقها»، ونقلوا في هذا المعنى نصاً نسبوه إلى محمد بن علي (الباقر) قال فيه: «لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ـــ فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم أو وصف بالعلم والقدرة. قالوا وكذلك نقول في القدم أنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته[2]». وقد وُصف الإسماعيلية من أجل ذلك بأنهم نفاة الصفات حقيقة، معطلة الذات عن جميع الصفات، بل يذهب الغزالي إلى أن هدفهم النهائي وغايتهم هو إنكار وجود الله تعالى، وأنهم لجأوا إلى هذه الحيلة حتى لا يتهموا في دينهم: «إن الإسماعيلية يتطلعون في الجملة لنفي الصانع، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم بل منعوا الناس من تسميته موجوداً، وهو عين النفي مع تغيير العبارة لكنهم تحذقوا فسموا هذا النفي تنزيهاً، وسموا مناقضه تشبيهاً حتى تميل القلوب إلى قبوله[3]».

ويبدو الأثر الأفلوطيني أكثر وضوحاً لدى الإسماعيلية في تفسيرهم لوجود المخلوقات وعلاقتها بالله تعالى إذ أنهم ذهبوا كما ذهبت الأفلوطينية إلى القول بوسائط بين الله وبين الكائنات، وأن الله لم يخلق الأشياء خلقاً مباشراً بل إنه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل واستشهدوا في هذا بالحديث الموضوع:

(١) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٣٨ / ٤٠. تاريخ الفلسفة اليونانية (يوسف كرم)، (ط.، رابعة . ١٣٧٨ / ١٩٥٨م. ص ٢٨٨ / ٢٩٦.

(٢) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٣.

(٣) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص، ٣٩.

«أول ما خلق الله العقل، فقال له اقبل فأقبل وقال له ادبر فأدبر.. إلخ»(١). وأضاف الإسماعيلية إلى هذا العقل كل صفات الكمال الإلهية، فهو الخالق المصور الواحد القهار، وأنه هو الموجود الأول الأزلي، والمبدع الأول والعقل الكلي، وأنه هو الذي رمز إليه الله تعالى بالقلم في قوله تعالى (ن والقلم وما يسطرون)(٢). وأن هذا العقل أو القلم هو الذي أبدع النفس الكلية، ونسبة النفس هذه إلى العقل، إما نسبة النطفة إلى تمام الخلق، والبيض إلى الطير، وإما نسبة الولد إلى الوالد، والنتيجة إلى المنتج، وإما نسبة الأنثى إلى الذكر والزوج إلى الزوج»(٣). وجعل الإسماعيلية للنفس الكلية جميع الصفات التي أضفوها على العقل الكلي، إلا أن العقل أسبق في الوجود من النفس ومن ثم سمي بالسابق وسميت النفس بالتالي. وهذه النفس والعقل هما مصدر الكائنات جميعاً، ويقول في ذلك السجزي: «العقل أول خلق ظهر من أمر الله.. ولم يوجد البارىء في أول الخلق غير العقل وحصر في جوهره صور المبدعات كلها كي لا يذهب شيء منها... ويسمى أحياناً بالقلم والعرش والأول والهيولي... وأن النفس هي الخلق الثاني والمنبجس من الخلق الأول.. والعقل والنفس هما الأصلان، إليهما مرجع

---

(١) رسالة الأصول والأحكام (ابن زهرة، الداعي الإسماعيلي حاتم بن عمران بن زهرة (توفي سنة ٤٩٧هـ) نقلاً عن: نشأة الفكر الفلسفي (النشار)، جـ ٢، ص ٤٠٩، حديث العقل حديث موضوع، وقد أورده ابن الجوزي بأسانيد مختلفة، وقال هذا حديث لا يصح عن رسول الله (ﷺ)، انظر: كتاب الموضوعات (أبي الفرج بن الجوزي)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ط. أولى ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، جـ ١، ص ١٧٤. وقد أورد السيوطي أيضاً، في اللآلىء المصنوعة عدة روايات لهذا الحديث وبين اتفاق العلماء على أنها موضوعة، انظر: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (جلال الدين السيوطي، توفي سنة ٩١١هـ)، دار المعرفة، ط. ثالثة ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، جـ ١، ص ١٢٩ ـــ ١٣٢. وقد بين العلماء أن أحاديث العقل الموضوعة أو الضعيفة هذه قد أخرجها داود بن المحبر في كتاب العقل ونقلها غيره، وداود هذا كذاب، انظر: المقاصد الحسنة (السخاوي، توفي سنة ٩٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ١١٨، الموضوعات (علي القاري، توفي سنة ١٠١٤هـ)، حققه محمد الصباغ، دار الأمانة ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، ص ١٣٧.

(٢) سورة القلم، الآية ١.

(٣) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٣.

الأشياء جميعها روحانياً أو جسمانياً، وهما الهيولي والصورة[1]». أما كائنات العالم فتحدث نتيجة لحركة النفس وتشوقها للعقل، «ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة، فحدثت الأفلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها، وتحركت حركة استقامة بتدبير النفس أيضاً، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان[2]». فالخالق للعالم في اعتقاد الإسماعيلية، هو العقل الكلي والنفس الكلية، وأن هذا الخلق يتم عن طريق الفيض أو الانبثاق. وعن هذا الفيض عبر اخوان الصفاء بقولهم: «إعلم يأأخي أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله تعالى لما كان تام الوجود، كامل الفضائل، عالماً بالكائنات قبل كونها، وقادراً على إيجادها متى شاء، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يفيضها، فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل، كما يفيض عن عين الشمس النور والضياء، ودام ذلك الفيض منه متصلاً متواتراً غير منقطع[3]». وبناء على هذه النظرية فإن الخلق قديم أزلي قدم الفيض والجود والفضل الإلهي، وأن الكـائنات تمثل جزءاً من الله تعالى، كما أن نور الشمس وضياءها لا يمكن فصلهما عنها وجوداً ولا رتبة ولا درجة.

وتبدو نظرية الفيض هذه أكثر وضوحاً لدى فيلسوف الإسماعيلية وداعيتها حميد الدين الكرماني، الذي عرضها عرضاً جيداً في كتابه «راحة العقل». وهو في هذا الكتاب لا يختلف عن الفلاسفة إلا في بعض الاصطلاحات، كاستخدامه للإبداع والاختراع والانبثاق بدلاً من الفيض. أما فيما عدا هذا، فنجد الكرماني يرتب الموجودات ترتيباً يبدأ بالموجود الأول أو العقل الأول أو المحرك الأول، ويصفه بما وصفه به الفلاسفة من أنه عقل في ذاته وعقل لذاته ومعقول بذاته[4]. وينبعث عن هذا العقل الأول، العقل الثاني، ويسمى المنبعث الأول أو

---

(١) رسالة تحفة المستجيبين (أبو يعقوب السجزي) ١٤٦ / ١٥٥، نقلاً عن نشأة الفكر الفلسفي (النشار)، جـ ٢، ص ٤١٣ / ٤١٥.

(٢) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٣.

(٣) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، جـ ٣، ص ١٩٦.

(٤) راحة العقل (حميد الدين الكرماني)، ص ٥٩ — ٦٠، ٨٩ — ٩٠.

القلم وهو في كماله كالأول(١). ثم يأتي المنبعث الثاني، وهو الأول في الموجودات القائمة بالقوة، وهو عند الكرماني الهيولي والمسماة في السُنَّة الإلهية باللوح. ويوجد عن العقل الأول أو المنبعث الأول، عقول سبعة وجود كل واحد منهم عن الآخر صاعداً إلى المنبعث الأول، أن كلاً منها ساطع سار فيما وجد عن الأول من الهيولي والصورة التي منها وجود السموات والأرض وحركاتها(٢).

ويأتي العقل العاشر أو الأخير من هذه العقول، ومقامه من عالم الجسم مقام المبدع الأول من عالم الإبداع الأول والانبعاث الأول. وهذا العقل هو العقل الفعال، عند الكرماني. ويوازن الكرماني بين العقل الفعال وبين العقل الأول فيقول: إن العقل الأول مركز لعالم العقول إلى العقل الفعال، والعقل الفعال عاقل للكل وهو مركز لعالم الجسم من الأجسام العالية الثابتة إلى الأجسام المستحيلة المسماة عالم الكون والفساد(٣).

أما عقائد الباطنية في النبوات فإنها شبيهة ان لم تكن متفقة تماماً مع اراء الفلاسفة كالفارابي وابن سينا، فالفلاسفة ذهبوا إلى أن النبي شخص تميز بقوى ثلاثة: **الأولى**: قوة قدسية، تابعة لقوة العقل النظري، يتمكن بها النبي من إدراك العلوم والمعارف من غير جهد ولا اكتساب، **والثانية**: قوة خيالية أو قوة المخيلة أو التخييل والحس الباطن، عن طريقها يتمثل للنبي ما يعلمه في نفسه ويراه ويسمعه، فيرى في نفسه صوراً نورانية هي الملائكة ويسمع اصواتاً هي كلام الله اووحيه وهذه الحالة في زعمهم، شبيهة بما يحصل للنائم في منامه أو لبعض الذين يأخذون أنفسهم بالرياضات الروحية أو من جنس ما يحصل لبعض المجانين والذين يصابون بالصرع، **والقوة الثالثة**: القوة النفسانية التي يتمكن النبي بها من التأثير في مادة العالم بحيث تحدث له الخوارق والمعجزات(٤).

---

(١) راحة العقل ص ١٠١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٦، ١٢٧ ــ ١٢٩.

(٤) انظر، الشفاء (ابن سينا) ص ٢٤٢ ــ ٢٤٦ الإشارات والتنبيهات (ابن سينا) جـ ٢ ص: ٣٦٨، ٣٧٠، ج٣، ٤ ص: ٨٥٣ ــ ٩٠٣.

واراء الباطنية لا تخرج في جملتها عن هذا التصور، إذ ذهبوا إلى ان الإنسان يتميز عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض الانوار عليه، وعرَّفوا النبي بأنه شخص فاضت عليه من السابق أو العقل الكلي بواسطة التالي أو النفس الكلية، قوة قدسية صافية وان هذه القوة مهيأة لان تنتقش فيها عند اتصالها بالنفس الكلية بما فيها من تصورات جزئية للكائنات والاشياء، وشبهوا هذه الحالة كما شبهها الفلاسفة بحالة النفوس الزكية التي تشاهد في المنام بعض الاحداث التي تجرى في المستقبل، أو بحالة انعكاس المحسوسات في الباصرة حينما تقع الشمس على سطوح الاجسام المرئية، وهذه المشاهدة أو الانعكاس قد يكون واضحاً صريحاً لا يحتاج إلى تأويل، وقد يكون رمزياً يحتاج إلى تفسير، وميزوا بين حال النائم وحال النبي، بأن النبي مستعد لتلقي مثل هذه المشاهدات في حالة اليقظة[١].

وبناء على ذلك عرف الباطنية الوحى بأنه هو ما قبلته نفس الرسول من العقل ولكن ليس قبولا مباشراً، وانما عن طريق وسائط وهي ما عرف عند الباطنية بالحدود الروحية الخمسة: السابق، والتالي، والجد، والفتح، والخيال. فالسابق يوحى إلى التالي وهو الذي يوحى بدوره إلى الجد، وهو اسرافيل، فيبلغه إلى الفتح وهو ميكائيل الذي يبلغه إلى الخيال «جبرائيل» فيوحيه جبرائيل بدوره إلى الناطق (النبي). وأورد الباطنية في هذا المعنى حديثاً نسبوه إلى الرسول ﷺ يقول فيه «اني آخذ الوحى عن جبرائيل، وجبرائيل يأخذه عن ميكائيل، وميكائيل يأخذه عن اسرافيل، واسرافيل يأخذه عن اللوح، واللوح يأخذه عن القلم»، وفسروه حسب مصطلحاتهم بأن النبي يأخذ الوحي عن الخيال الذي يأخذه عن الجد عن الفتح عن التالي الذي يأخذه عن السابق[٢].

فالوحي او القرآن مستمد من سلسلة الحدود الروحية التي أولها السابق، فهو في زعمهم ليس كلام الله، ولكن في نفس الوقت ليس كلام رجل يطلقه كيفما يشاء، بل هو تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل (أو الخيال) الذي هو المراد باسم جبرائيل، ويسمى كلام الله تعالى مجازاً، فإنه مركب من

---

(١) فضائح الباطنية (الغزالي) ص: ٤٠ — ٤١، انظر أيضاً، راحة العقل (الكرماني) ص: ٤٠٠ وما بعدها.

(٢) انظر: الينابيع (السجستاني) المقدمة: ص ١٨ وهذا الحديث لا اصل له ولا سند.

جهته وانما الفائض عليه من الله بواسطة جبريل بسيط لا تركبب فيه، وهو باطن لاظهور له، وكلام النبي وعبارته ظاهر لا بطون له»[1]. ويذهب الباطنية إلى ان هذه القوة القدسية الفائضة على النبي ﷺ، لا تستكمل في أول حلولها كما لا تستكمل النطفة في الرحم إلا بعد تسعة أشهر، وان كمال هذه القوة ان تنتقل من الرسول الناطق إلى الأساس الصامت (الامام))»[2].

وهكذا ترتبط الإمامة بالنبوة عند الباطنية، فهم يذهبون كما يذهب الشيعة جميعاً إلى القول بإمامة آل البيت، ولكن سلسلة الائمة عندهم بعد جعفر الصادق هم اسماعيل وسلالته من بعده، وذهبوا كما ذهب الشيعة، إلى القول بأنه لابد في كل عصر من امام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل اشكالات القرآن. وان هذا الإمام مساو للنبي في العصمة. وزاد الباطنية على ذلك بأن اسبغوا على ائمتهم من الصفات ما جعلهم في مرتبة تعلو على البشر، ووفقا لنظريتهم عن المثل والممثول والتي تقرر ان في العالم الأرضي حدود جسمانية تماثل الحدود العلوية وتتصف بصفاتها وتسمى باسمائها، فإنهم جعلوا مرتبة النبي تماثل مرتبة السابق أو العقل الكلي، والوصي مرتبته مرتبة التالي أو النفس الكلية، وكما ينقل عنهم الشهرستاني فإنهم قالوا: «في العالم العلوي عقل، ونفس كلى، فوجب أن يكون في هذا العالم عقل مشخص هو كل، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ، ويسمونه الناطق وهو النبي. ونفس مشخصة وهو كل أيضاً وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام، أو حكم الأنثى المزدوجة بالذكر، ويسمونه الأساس وهو الوصي»[3]. ونجد هذا الارتباط بين الأئمة ومراتب الوجود اكثر وضوحاً لدى فيلسوف الإسماعيلية الكرماني، إذ أنه يقابل مراتب الدعاة الإسماعيلية بالعقول العشرة في نظريته عن الوجود (الفيض)، فالعقل الأول يقابل الناطق، والعقل الثاني يقابل الاساس، والعقل الثالث يقابل الامام، والعقل الرابع يقابل الباب، والعقل الخامس يقابل الحجة، والعقل

---

(١) الإسماعيليون في المرحلة القرمطية (سامي العياش) ص ١٦٩، نقلاً عن الحركات الباطنية في الإسلام (محمد أحمد الخطيب) ص ٩٧. أنظر أيضاً، فضائح الباطنية (الغزالي) ص: ٤١.

(٢) فضائح الباطنية (الغزالي) ص:٤١.

(٣) الملل والنحل (الشهرستاني) جـ ١، ص: ١٩٣ ــ ١٩٤.

السادس يقابل داعى البلاغ، والعقل السابع يقابل الداعي المطلق، والعقل الثامن يقابل الداعي المحدود، والعقل التاسع يقابل المأذون المطلق بينما العقل العاشر أو العقل الفعال يقابل المأذون المحدود، المكاسر أو المكالب»(١).

فالوصى إذن يقابل النفس الكلية أو العقل الثاني، بينما الإمام يقابل العقل الثالث حسب ترتيب الكرماني للعقول، وهكذا فإن الإمامة عند الباطنية مكملة للنبوة. واستمرار لها في صورة اخرى.

وقد ربط الباطنية معتقداتهم هذه حول النبوة والإمامة بتصورهم لدورات التاريخ ومساره، إذ ذهبوا إلى أن الحياة تسير في تجدد مستمر وأنها تنقسم إلى ست فترات أو دورات نبوية، وكل دورة تبتدىء بظهور نبي أو ناطق ومعه أساس، أو وصى، وتبدأ هذه السلسلة المستمرة بآدم صاحب الدور الأول وأساسه أو وصيه شيث، ثم نوح وأساسه سام، وإبراهيم وأساسه إسماعيل، وموسى وأساسه يوشع، وعيسى وأساسه شمعون الصفاء، ومحمد وأساسه علي، ولانه صاحب الدور السادس فقد نسخ محمد ﷺ شريعة من قبله من النطقاء وقام بباطن شرائع من تقدم قبله. وظهور النبي السادس يعني نهاية الدائرة، ومن بعده يأتي الأئمة يتممون شريعته ويحيون سنته. وهم أيضاً يتتالون في دورات سباعية، بدءاً بعلي بن أبي طالب الذي نصبه الرسول عليه الصلاة والسلام أساساً وتبدأ به دورة يتعاقب فيها الحسن والحسين وعلي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وتنتهي بإسماعيل، الإمام السابع للإسماعيلية، وتبدأ الدورة الثانية أو الجديدة بمحمد بن إسماعيل الذي هو المهدي أو «إمام البعث». ويقول الإسماعيلية إنه هو صاحب شريعة بمعنى أنه مؤكد للشريعة السابقة ومظهر لمعانيها الباطنة وكاشف عن حقيقة التوحيد(٢).

وقد ذهب الإسماعيلية إلى أن هناك تماثلاً بين هذه الأدوار جميعاً، فما حدث في عصر آدم عليه السلام يتكرر في عصر إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ومحمد، ولذلك فإن صفات هؤلاء الأنبياء واحدة، بحيث يمكن القول أن موسى هو آدم

(١) راحة العقل (الكرماني) ص: ١٣٨.

(٢) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٤٣ ـــ ٤٤، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (فخر الدين الرازي)، ص ٨٠ ـــ ٨١.

عصره وهو نوح عصره وهكذا.. وبالمثل فإن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء وحملوا لواءهم من بعد نماذج متكررة لمن سبقهم من الأنبياء. كما يتفقون أيضاً في مراتبهم وصفاتهم: ونتيجة لذلك فإن إمام العصر هو وارث الأنبياء جميعاً ووارث كل من سبقه من الأئمة. ولذلك وصف شعراء الإسماعيلية أحد أئمتهم بأنه خليل الله وكليمه وأنه تجتمع فيه خصائص الأنبياء والأئمة جميعها فيقول مخاطباً هذا الإمام:

سلام على الغرة الطاهرة وأهلاً بأنوارها الزاهرة
سلام بدياً على آدم أبي الخلق باديه والحاضرة

إلى أن يقول :

سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأنجم الزاهرة
سلام عليك فمحصولهم لديك أيا صاحب القاهرة(١)

بل إن هؤلاء الأئمة وصفوا بصفات الألوهية، ونسب إليهم القدرة المطلقة، والوجود الأزلي السابق للكون، ويقول أحد شعراء الإسماعيلية عن إمام من أئمتهم:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فأحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والأخبار(٢)

---

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة قالها داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي في مدح المعز لدين الله، انظر: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، تحقيق محمد كامل حسين، ص ٢٨٦.

(٢) قائل هذه الأبيات ابن هانىء الأندلسي (٣١٦ / ٣٦٢هـ) انظر: ديوان ابن هانىء الأندلسي ـــ دار صادر ـــ بيروت ١٩٦٤م، ص ١٤٦، وكان ابن هانىء شاعراً للمعز لدين الله الذي قال فيه هذه الأبيات ويعتبر شعره مرجعاً مهماً لدراسة العقيدة الفاطمية وكل ما كان يؤمن به دعاتها من صفات علوية في الإمام من عصمة وعلم بالظاهر والباطن وأنه روح من الله، أونه علة الحياة وسبب الوجود، انظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي (شوقي ضيف)، دار المعارف، مصر، ط. رابعة ١٩٦٠م، ص ٤١٩ وما بعدها. انظر أيضاً ظهر الإسلام (أحمد أمين)، جـ ٣، ص ١٣٨ / ١٤٠.

ويقول آخر :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهي منك جوهره ... تناهياً حاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيولي وبسط الأرض والمدر[1]

وقد سيطرت على الباطنية فكرة الأعداد، والتي يبدو فيها الأثر الفيثاغوري، وحاولوا إبراز أهمية العدد سبعة الذي ترتبط به عندهم دورات الإمامة، وأرجعوا أكثر الأمور إليه، فقالوا: في الجسد سبع قوى فعالة جسمانية هي: الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة. وفيه أيضاً سبع قوى روحانية حساسة خفيفة لطيفة وهي: الباصرة والسامعة والذائقة والشامة واللامسة والناطقة والعاقلة، وذهبوا إلى أن دعائم الإسلام سبع وهي: الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والإمامة. وهكذا سيطرت هذه الأفكار عن الأعداد على عقول الباطنية وراحوا يتصيدون الأمثلة لتأكيدها حتى أطلق عليهم اسم السبعية[2]. ونتيجة لتصور الباطنية لدورات الدهر المستمرة، وربطهم نهاية الدور السابع بقيام القيامة، فقد تبنوا معتقدات عن الحياة الآخرة مخالفة تماماً للعقيدة الإسلامية، إذ ذهبوا إلى أن القيامة إنما هي رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان، وأن معناها انقضاء الدورة، وتبعاً لذلك أنكروا بعث الأجسام والجنة والنار، وقالوا إن معنى المعاد هو عود كل شيء إلى أصله، وأن الإنسان مركب من عالم روحاني وعالم جسماني، فالجسماني منه جسده، وهو مركب من أخلاط أربعة هي: الصفراء والسوداء والبلغم والدم، فينحل الجسد ويعود كل خلط إلى الطبيعة العالية، فالصفراء تصير ناراً والسوداء تصير تراباً والدم يصير هواء والبلغم يصير ماء وهذا هو معاد الجسد. أما الروحاني وهو النفس المدركة العاقلة في الإنسان فإنها، إن صفيت بالمواظبة على الطاعات وزكيت بمجانبة الهوى والشهوات، وغذيت بغذاء العلوم والمعارف المتلقاة من الأئمة الهداة، اتحدت عند مفارقة الجسم بالعالم الروحاني الذي منه انفصالها وتسعد بالعود إلى وطنها الأصلي، ولذلك سمي رجوعاً فقيل (ارجعي إلى ربك راضية مرضية) وهي الجنة[3]. ويؤكد أحد الإسماعيلية المعاصرين رأى

---

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي في مدح أخيه العزيز بالله.. انظر طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين)، ص ١٥٩ / ١٦٠.

(٢) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٦٦ وما بعدها.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٤ / ٤٥.

الإسماعيلية هذا في المعاد فيقول: إن الإسماعيلية ذهبوا إلى ان الانسان بعد موته يستحيل عنصره الترابي (جسمه) إلى ما يجانسه من التراب، وينتقل عنصره الروحى (الروح) إلى الملأ الأعلى فإن كان الأنسان في حياته مؤمنا بالإمام فهي تحشر في زمرة الصالحين وتصبح ملكاً مدبراً، وان كان شريراً عاصياً لإمامه حشرت مع الابالسة والشياطين وهم اعداء الإمام[1]».

وأخيراً فإن الإسماعيلية قد عمقوا مفهوم «الظاهر والباطن» وتوسعوا في استخدامه، وذهبوا كما ذهب معظم الشيعة، إلى أن التأويل الباطني من الأمور التي اختص الله بها علياً بن أبي طالب. فكما أن النبي خُص بالتنزيل، فعلي قد خُصّ بالتأويل وأن علياً ورَّث هذا العلم الأئمة من بعده، وهم الذين يَدُلُّون الناس على المعاني الباطنة وأسرار الدين. وقد تطرف الإسماعيلية في تأويلاتهم، فذهبت طوائف منهم إلى تأليه الأئمة وإلى طرح فرائض الشرع كما سنرى. وفسروا الصلاة بأنها الاتجاه القلبي للإمام، وأن الصوم عبارة عن عدم إفشاء أسرار الدعوة، والحج زيارة الإمام، وأن الفجر هو المهدي المنتظر، وأن الأهلَّة هم الأئمة، والسماء هي الدعوة، والملائكة هم الدعاة، وزعمت طوائف من هؤلاء الباطنية أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده وسنها نبيه ﷺ، لها ظاهر وباطن. وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة فأمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها، وعليها العلم وفيها النجاة. وأن ما ظهر منها فهي التي نهي عنها، في استعمالها الهلاك، وهي جزء من العذاب الأدنى، عذب الله به قوماً وأخذهم به ليشقوا بذلك إذ لم يعرفوا الحق، ولم يقولوا به، ولم يؤمنوا[2]». ومن أجل ذلك دعا معظم الباطنية، كما سنرى، إلى إباحة المحارم والخروج على حدود الله. وزعمت القرامطة منهم، أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم — ومعناها عندهم — الإباحة للمحارم وجميع ما خلقه الله في الدنيا. وهذا، في زعمهم الباطل، معنى قول الله تعالى (فكلا منها رغداً حيث شئتما) يعني محمد بن إسماعيل وأباه إسماعيل. (ولا تقربا هذه الشجرة)، موسى بن جعفر بن محمد وولده من بعده من ادعى الإمامة[3]. إلى غير ذلك من المزاعم الباطلة

(١) انظر، كتاب الينابيع (أبو يعقوب السجستاني) المقدمة، ص: ١٦.

(٢) كتاب المقالات والفرق (سعد القمي) ص ٨٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ٨٤.

والتأويلات الفاسدة التي لا يقرها الشرع ولا يسندها عقل[1].

من عقائد الإسماعيلية هذه يتبين لنا ان الباطنية كانوا يسعون دوماً إلى هدم العقيدة الإسلامية وإحلال عقائد فلسفية، مستمدة من الفلسفة اليونانية، والمذاهب الهندية، والفارسية، والديانات السماوية المحرفة، محلها. وهذا ما يعترف به الإسماعيلية المعاصرون الذين يدافعون عن المذهب الباطني، ويقررون ان الإسماعيلية نظرية فلسفية، وفكرة إنسانية تقوم على أسس قديمة من المعرفة، ودعائم ثابتة من العيان المحجوب إلا عن المرتاضين. ويذهبون إلى ان الإسماعيلية عقيدة رافقت الكون منذ ابتدائه، فكانت مقصورة على فئة من الناس الباصرين والانبياء الناطقين والأئمة المعصومين والدعاة والحجج الملهمين الذين صفت قلوبهم وخصوا بالحكمة.

وهي في زعمهم فلسفة سابقة على الإسلام، في ظلها نما الفكر اليوناني وشب وترعرع، وعلى هذه الدعائم القوية والأسس الثابتة قام ونهض، فكان سقراط ومن بعده افلاطون، وارسطو، وفيثاغورس، وجابر بن حيان، وابن قداح، واخوان الصفاء والفارابي، وابن سينا والنيسابوري، والرومي، والسجستاني، والخيام، والكرماني وغيرهم ممن وضعوا أسس المعارف في الشرق ورفعوا اسمه عالياً حتى اصبح يطاول الجوزاء«!!»[2].

فالمذهب الباطني اذن لا علاقة له بالإسلام وتعاليمه ومبادئه في رأى هذا الكاتب. بل ان الحركة الإسماعيلية، في رأى كاتب باطني آخر، ليست سوى مجموعة من المدارس الفلسفية الفكرية قائمة بذاتها، تذخر بالحيوية الفكرية المتفاعلة، وبالعقلية الخلاقة المبدعة، التي استنبطت العلوم، وابدعت الافكار الثورية الاشتراكية (هكذا) وابتكرت السنن والقوانين واوجدت النظم والاحكام».

ويعترف هذا الكاتب صراحة بالاهداف التدميرية التي حملتها الفلسفة الباطنية ضد الإسلام ودوله فيقول: «والحقيقة التي لا مراء فيها ان هذه المدارس الفلسفية

---

(١) انظر نماذج من التفسير الباطني في كتاب «التفسير والمفسرون» للشيخ محمد حسين الذهبي.

(٢) انظر: اربع رسائل اسماعيلية، المقدمة بقلم عارف تامر ص: ٨.

انجبت طبقة نيرة من المفكرين وصفوة مختارة من الفلاسفة حشدوا كل امكاناتهم الفكرية والعقلية، للقضاء على دولة بني العباس، ليشيدوا على انقاضها دولة جديدة ذات نظام اشتراكي عقلي سليم يهدف إلى ايجاد مذهب اجتماعي اشتراكي، وأخوية فلسفية دينية إسلامية وتأليف كتلة قوية موحدة الأهداف والكلمة[1].

وإذا كان هذا هو الاساس للدعوة الإسماعيلية الباطنية، وتلك هي اهدافها، فلا عجب إذا رأينا الإسماعيلية الباطنيين المعاصرين يسعون إلى محاربة الإسلام واهله ويحملون لواء الدفاع عن المذاهب الهدامة والدعوات الالحادية المادية.

الحركات الإسماعيلية (الباطنية) وأثرها في التاريخ الإسلامي

ظهرت خلال التاريخ الإسلامي العديد من الحركات الإسماعيلية، وقد عملت هذه الحركات الباطنية المستترة بالتشيع على إثارة كثير من القلاقل والاضطرابات وبث الأفكار الباطلة والدعوات المنحرفة، واتخذت أساليب شتى ووسائل مختلفة لهدم الإسلام.

الإسماعيلية باليمن :

ولعل أول حركة إسماعيلية كتب لها النجاح كانت ببلاد اليمن حيث استطاع أحد دعاة الإسماعيلية ويدعى الحسن بن حوشب[2]، وهو كوفي الأصل ويلقب بمنصور اليمن، استطاع هو وداع آخر يمني الأصل يسمى علي بن الفضل[3]، أن

---

(١) كتاب الينابيع (السجستاني) المقدمة بقلم مصطفى غالب، ص: ٢٥ ــ ٢٦.

(٢) أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان، كان ينسب إلى ولد مسلم بن عقيل، وكان أبوه ممن ينتحل عقيدة الشيعة الإثنى عشرية. كشف أسرار الباطنية، ص ٢٢. رسالة افتتاح الدعوة (النعمان بن محمد)، ص ٣٢ ــ ٣٨.

(٣) علي بن الفضل الجدني، أصله من جيشان باليمن، وكان على مذهب الاثنى عشرية، خرج إلى الحج وزيارة المدينة ومنها توجه إلى الكوفة لزيارة قبر الحسين، وهناك وقع في براثن الدعوة الباطنية الإسماعيلية، فتبنى مذهبهم، ولقنوه تعاليمهم ووعدوه قرب ظهور الإمام المستور من نسل محمد بن إسماعيل وزينوا له التمهيد للدعوة والخروج إلى اليمن، هلك عام ٣٠٣هـ، بعد أن استطاع الاستقلال بالملك بالمذيخرة باليمن، انظر: كشف أسرار الباطنية، ص ٢١ــ ٢٣، بيان مذهب الباطنية، مقدمة ص: ز.

يجمعا حولهما عدداً من قبائل اليمن وأن يظهرا الدعوة للإمام الإسماعيلي المنتظر، وتأسست بذلك أول دولة إسماعيلية في التاريخ عام ٢٦٨هـ[١]. ويقال إن ابن حوشب أظهر في أول عهده نوعاً من التقوى والورع، وادعى الفقه وتظاهر باتِّباع مذهب أهل السنة والجماعة، فسمع به الناس وأقبلوا عليه، واستخدم الكثير من الحيل لكسب ثقتهم، ولكنه لم يلبث بعد أن تمكن وقويت شوكته، أن كشف عن حقيقة مذهبه وأظهر ما كان يضمره من كفر وإلحاد، فأظهر الدعوة إلى المهدي من آل إسماعيل وانتهى به الأمر إلى إحلال المحارم وإباحة الفاحشة لأتباعه[٢]. أما علي بن الفضل فإنه انتحى ناحية أخرى من بلاد اليمن، وأظهر أيضاً النسك والعبادة حتى أنس إليه الناس وأحبوه وافتتنوا به وقلدوه أمرهم، وبعد أن خدعهم ولبَّس عليهم، واشتد أمره، ادعى النبوة وأعفى أتباعه من أداء الشعائر الإسلامية، من صلاة وصوم وحج وأحل نكاح البنات والأخوات، وتنسب إليه أشعار تكشف ما آل إليه أمره من فساد وانحلال ومروق إذ يقول:

خذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي	وإن صوَّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفاء	ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين ومن أجنبي
فكيف حللت لهذا الغريب	وصرت محرمـــة للأب
أليس الغراس لمن ربه	ورواه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء	حلال فقدست من مذهب[٣]

(١) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين)، ص ٢٢، بيان مذهب الباطنية، مقدمة: «و»، رسالة افتتاح الدعوة (النعمان بن محمد)، ص ٣٨ — ٤٢.

(٢) كشف أسرار الباطنية، ص ٢٤ / ٢٨.

(٣) المرجـع نفسه، ص ٢٨ /٣١، بيان مذهـب الباطنية، ص ٨٢ / ٨٣. ويـورد أحمد حسين شرف الدين نقلاً عن كتاب «السلوك» للبهاء الجندي، نسبة هذه الأبيات إلى علي بن الفضل إذ يقول: «ثم ادعى علي بن الفضل النبوة، وأحل لأصحابه شرب =

وهكذا اتبع كل من ابن حوشب وعلي بن الفضل أسلوب الباطنية في الدعوة، إذ بدأا بالخداع والتدليس وإظهار التقوى والورع، وانتهى بهما الأمر إلى إبطال الشريعة ورفع التكاليف. ولم يقتصر نشاط ابن حوشب على اليمن بل امتد نشاطه إلى شمال إفريقية فأرسل مجموعة من الدعاة نجح أحدهم وهو أبو عبدالله الشيعي في بث الدعوة الإسماعيلية الباطنية إلى الإمام المهدي المنتظر بين بعض القبائل المغربية، واكتسب تأييد قبيلة كتامة، أقوى القبائل آنذاك، فبايعوه، ووضع بذلك البذور الأولى للدولة العبيدية (الفاطمية). وقد دخل الباطنية باليمن في صراع مرير مع الزيود بقيادة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ومن بعده ابنه أحمد بن يحيى واستمر الصراع المرير بين الفريقين حتى موت منصور اليمن عام ٣٠٢هـ وهلاك على بن الفضل عام ٣٠٣هـ[١].

القرامطة :

قد واكب نجاح الدعوة الإسماعيلية باليمن، ظهور حركة إسماعيلية أخرى في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة، وتنسب هذه الحركة إلى رجل من أهل الكوفة يقال له حمدان قرمط. كان يميل إلى الزهد فصادفه يوماً في طريقه أحد دعاة الإسماعيلية وهو الحسين الأهوازي. وكان ممن بعث بهم عبدالله بن ميمون القداح من سَلَمية إلى الكوفة لنشر الدعوة بها. فاستدرج الداعي حمدان واستغواه حتى استجاب لدعوته وصار أصلاً من أصول الدعوة الإسماعيلية الباطنية، ولما توفى الداعي الإسماعيلي تولى الأمر من بعده حمدان قرمط فأظهر نشاطاً في الدعوة وحماساً لها واستطاع أن يجمع حوله الكثير من الأتباع واتخذ مركزاً خارج الكوفة أسماه «دَار الهجرة» جعله مقراً لأتباعه ومنطلقاً لدعوتهم. وكان يجبي

= الخمر ونكاح البنات والأخوات ودخل مدينة الجند في أول خميس من رجب سنة ٢٩٢هـ (٩٠٥م) فصعد المنبر وقال الأبيات... وبعد أن يورد الأبيات المذكورة أعلاه يقول :

«وقد روى هذه القصيدة صاحب «أنباء الزمان» وصاحب «بهجة الزمن».. وغيرهما وتكلموا طويلاً عن تصرفات ابن الفضل وفظائعه وانحرافاته الدينية والعقائدية، انظر: تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن (أحمد حسين شرف الدين) ط. ثانية ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠، ص ٨٧ / ٨٨.

(١) بيان مذهب الباطنية، ص ٨٣.

الأموال والضرائب من أتباعه، ويغوي الضعفاء بمساعدتهم وبذل المال لهم وإشاعة المؤاخاة بينهم(١).

ورغم الاختلاف حول هوية حمدان قرمط والداعي الإسماعيلي الذي أغواه، فإن الحركة التي كانا وراءها لم تلبث أن انتشرت مبتدئة من سواد الكوفة حتى أصبحت في أواخر القرن الثالث للهجرة خطراً يتهدد الخلافة وينشر الرعب والفزع في نفوس الناس، وقد هاجم القرامطة البصرة والكوفة ونواحي الشام وانتشروا في اليمن ونواحي البحرين والقطيف، واستطاعوا أن يؤسسوا دولة في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابي، ودخلوا في مواجهة مع جيوش الخلافة العباسية وهزموها في عدة مواقع، وأكثروا القتل والنهب والسلب للمسلمين، خاصة في مواسم الحج، حيث كانوا يهاجمون قوافل الحجيج ويفتكون بها، وبلغوا ذروة نشاطهم عام ٣١٧هـ، حيث دخلوا مكة تحت إمرة أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي وقتلوا الحجيج وردموا بجثثهم بئر زمزم وهدموا الكعبة ونزعوا الحجر الاسود وحملوه إلى عاصمتهم «هجر» حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً ولم يَرُدُّوه إلا في عام ٣٣٩هـ(٢). ويقول ابن كثير عن أحداث هذه الفترة: حج بالناس في هذه السنة (٣١٧هـ) منصور الديلمي، وسار بهم من بغداد إلى مكة، فسلموا في الطريق، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، فنهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها، وفي المسجد الحرام، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر، لعنه الله، على باب الكعبة، الرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام يوم التروية الذي هو من أشرف الأيام وهو يقول:

أنا الله وبالله أنا * يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً، بل يقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل

(١) الفرق بين الفرق (البغدادي) ص ٢٨٢ / ٢٨٣، فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ١٢ / ١٤، تلبيس إبليس (ابن الجوزي)، ص ١٠٤ / ١٠٥.

(٢) انظر لأحداث هذه الفترة الممتدة من عام ٣٦٤هـ، حتى نهاية العقد الرابع من القرن الرابع من الهجرة وما قام به القرامطة من أعمال وما أحدثوه من اضطرابات: الكامل في التاريخ (ابن الأثير)، تاريخ الأمم والملوك (الطبري)، المنتظم (ابن الجوزي).

الحديث يومئذ يطوف فلما قضى طوافه أخذته السيوف. فلما قضى القرمطي، لعنه الله أمره، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم، ودفن كثير منهم في أماكن من الحرم وفي المسجد الحرام، ولم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يُصَلَّ عليهم لأنهم مُحْرِمون. وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها وشقها بين أصحابه، وأمر رجلاً أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه فسقط على أُمِّ رأسه فمات إلى النار.. ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود فجاء رجل فضربه بمثقل في يده وقال: أين الأبابيل، أين الحجارة من سجيل، وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة[1]».

وقد حاول القرامطة بهجومهم على الكعبة أن يبطلوا فريضة الحج، وأن ينفذوا بطريقة عملية الافكار التي نادوا بها من أن هذه الشعائر العبادية من حج وصوم وصلاة ما هي إلا رموز لمعان باطنية. ويروى أن قائدهم كان ينشد وهو يشاهد أنصاره يهدمون الكعبة:

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنَّا حججنا حجة جاهليةً محللةً لم تبق شرقاً ولا غرباً
وإنَّا تركنا بين زمزم والصفا جنائز لا تبقى سوى ربها رباً
ولكن رب العرش جل جلاله ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجبا[2]

وقد استمر نشاط القرامطة في البحرين لفترة طويلة حتى ضعف أمرهم وانتهت دولتهم عام ٤٧٠هـ.

وقد كانت دعوة القرامطة في بدايتها دعوة إسماعيلية، ولكنها كانت تدعو إلى الإمام المنتظر محمد بن إسماعيل باعتباره المهدي أو الإمام الغائب، وهذا هو الذي ميز هذه الجماعة داخل الإطار الإسماعيلي الباطني العام، كما كان هذا هو سبب الخلاف والعداء فيما بعد بينهم وبين دعاة الفاطميين وأئمتهم. إذ أن الإسماعيلية جميعاً، ما عدا القرامطة، كانوا يؤمنون بأن هناك إماماً حياً وأن هناك حجة لهذا الإمام. فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لحجته سعيد بن الحسن

(١) البداية والنهاية (ابن كثير)، جـ ١١، ص ١٦٠ — ١٦١.
(٢) كشف أسرار الباطنية، ص ٢٠.

بن عبدالله القداح، ليكون ستراً، أو مستودعاً لابنه القائم كما تقول المصادر الإسماعيلية، انتفض قرامطة السواد وعلى رأسهم حمدان قرمط، وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطي المشهور، وسافر عبدان لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبيد الله المهدي، وسأله عن الحجة وعن الإمام، فقال سعيد (أي المهدي) لعبدان: ومن الإمام؟ فرد عليه عبدان بعقيدة القرامطة: محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه، وكان حجته. فأنكر ذلك عليه وقال: محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبي، وهو من ولد ميمون بن ديصان، وأنا أقوم مقامه[1]».

ولما اكتشف القرامطة هذا الزيف في شخصية الإمام الذي قامت الدعوة باسمه، شكوُّا في الأمر كله، وانتهى بهم الأمر إلى مطاردة الإمام الشيعي المزعوم ومحاولة كشف حقيقته والتخلص منه. ويقال أن قرامطة الشام هاجموا دار الإمام الإسماعيلي في سَلَميه ونهبوها وكانوا ينوون قتله[2]. ولكن عبيدالله المهدي علم بأمرهم واستطاع أن يفلت منهم فذهب إلى مصر ومنها إلى سجلماسة حيث استطاع داعيته أبو عبدالله الشيعي أن يمهد لقيام الدولة الفاطمية هناك.

وقد تبنى القرامطة عقائد الباطنية وأسلوب دعوتهم، إن لم يكن هم الذين، شاركوا في وضعها. وتهدف دعوتهم في عمومها إلى نشر الإلحاد وإبطال الشرائع وتعطيلها. وقد اتبعوا في سبيل بث هذه الدعوة وسائل مختلفة ومداخل متعددة مع من يريدون جذبه إلى معتقدهم الباطل تتلخص في: التفرس والتأنيس، والتشكيك والتلفيق، والربط، والتدليس والتأسيس، والمواثيق بالإيمان، والعهد، والخلع، والسلخ[3]. وهي مراتب تبتدىء بتخير الشخص الذي يريدون إغواءه واستمالته، وتنتهي بإخراج الإنسان من الإسلام وإلغاء التكاليف عنه، وأخذ العهد عليه والميثاق، بكتمان سرهم. ويلخص ابن الجوزي أسلوب القرامطة ومنهجهم في

---

(١) نهاية الأرب، نقلاً عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار)، جـ ٢، ص ٤٤٠ / ٤٤١.

(٢) عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن)، ص ٩٤ / ٩٥. نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام «النشار»، جـ ٢، ص ٤٥٠.

(٣) الفرق بين الفرق (البغدادي) ص ٢٩٨ / ٣٠٢.

الدعوة فيقول: «وهم يستدرجون الخلق إلى مذهبهم بما يقدرون عليه، فيميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم، ويميزون من يمكن أن ينخدع لهم ممن لا يمكن خداعه، فيوصون دعاتهم فيقولون للداعي إذا وجدت من تدعوه شيعياً فاجعل التشيع دينك ــ أدخل عليه من جهة ظلم الأمة لعلي عليه السلام وقتلهم الحسين وسبيهم لأهله والتبرؤ من تيم وعدي وبني أمية وبنى العباس، وقل بالرجعة، وأن علياً يعلم الغيب، فإذا تمكنت منه أوقفته على مثالب علي وولده، وبينت له بطلان ما عليه أهل ملة محمد عليه الصلاة والسلام. وإن كان سنّياً فاعكس له. وإن كان يهودياً فادخل عليه من جهة انتظار المسيح وأن المسيح هو محمد بن سماعيل بن جعفر وهو المهدي واطعن في النصاري والمسلمين. وإن كان نصرانياً فاعكس. وإن كان صابئاً فعظم له الكواكب، وإن كان مجوسياً فعظم له النار والنور. وإن وجدت فيلسوفاً فهم عمدتنا لأننا نتفق وإياهم على أبطال النواميس والأنبياء، وعلى قدم العالم، وإن كان مائلاً إلى المجون فقرر عنده أن العبادة بله والورع حماقة وإنما الفطنة في اتباع اللذة وقضاء الوطر من الدنيا الفانية. فإذا نفذوا إلى قلب الشخص بدأوا بإلقاء أسئلة تشكيكية حول معتقده. وعلقوا الإجابة عليها وربطوها بإمامهم المعصوم. فإذا سار معهم وآمن بهذا الإمام، أخذوا عليه العهد والميثاق بكتمان أمرهم، وعندها يكشفون له عن حقيقتهم وأن هدفهم هو إبطال الشريعة وإنكار الأنبياء، وجحود الألوهية[١]».

أما عقائد القرامطة فإنها تلتقي مع العقائد الباطنية اتي تهدف إلى إبطال الشريعة الإسلامية وإنكارها، وإنكار البعث والقيامة ووضع تصور غريب في الوجود إلى غير ذلك من القضايا التي سبق أن أشرنا إليها عند حديثنا عن عقائد الباطنية[٢].

الفاطميون (العبيديون) :

قد نبهت الحركات الباطنية الإسماعيلية، كحركة ابن حوشب وعلي بن الفضل في اليمن وحركة القرامطة، العباسيين، فسعوا إلى معرفة الشخصية التي تكمن وراء

---

(١) القرامطة (ابن الجوزي) ، ص ٥١ / ٥٦. الفرق بين الفرق، ص ٢٩٨ وما بعدها، فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٢١ / ٣٢.

(٢) انظر هذا الكتاب ص ٢٧٢ وما بعدها.

هذه الحركات والتي ينضوي تحت لوائها القرامطة، ويدعو إليها ابن حوشب. ولكن الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي استطاع أن يفلت ــ كما سبق أن رأينا ــ من حصار العباسيين ومن القرامطة معاً، حيث التحق بأتباعه في المغرب واستطاع أن يؤسس في عام ٢٩٧هـ دولة عرفت بالدولة الفاطمية. وهكذا انتقل أئمة الإسماعيلية من دور الستر إلى دور الظهور. ولم تقف دولة الفاطميين أو العبيديين كما تسمى أحياناً عند حدود المغرب، بل سرعان ما أرسل إمام الإسماعيلية دعاته إلى الشرق سعياً إلى توطيد نفوذه، واستطاعت جيوش الفاطميين أن تدخل مصر تحت امرة القائد جوهر الصقلي، الذي بني مدينة القاهرة لكي تكون عاصمة للفاطميين، وشيد الجامع الأزهر لكي يكون مركزاً علمياً لقيادة الدعوة الإسماعيلية. وقد تسلسل أئمة الإسماعيلية في توليتهم الإمامة ورئاسة الدولة الفاطمية على النحو التالي: عبيد الله المهدي (٢٩٧ ــ ٣٢٢هـ)، القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢ ــ ٣٣٤هـ)، المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤ ــ ٣٤١هـ)، المعز لدين الله تميم (٣٤١ ــ ٣٦٥هـ)، وفي عهده انتقلت دولة الفاطميين إلى مصر عام (٣٦٣هـ)، العزيز بالله (٣٦٥ ــ ٣٨٦هـ)، الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ــ ٤١١هـ)، الظاهر أبو الحسن علي (٤١١ ــ ٤٢٧هـ)، والمستنصر بالله (٤٢٧ ــ ٤٨٧هـ)، وبعد المستنصر انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فرقتين: المستعلية والنزارية، ذلك أن المستنصر نص على أن تكون الإمامة من بعده لابنه نزار، ولكن وزيره الأفضل بن بدر الجمالي انتهز فرصة وفاة المستنصر وأعلن إمامة المستعلي (٤٨٧ ــ ٤٩٥هـ) الابن الأصغر للمستنصر وابن أخت الوزير. ويقال إنَّ الجمالي، بعد حروب مريرة بينه وبين نزار وأتباعه، قبض على نزار وابنه وبني عليهما حائطاً وتخلص منهما بذلك[1]. ولكن عدداً كبيراً من الدعاة وأتباع المذهب الإسماعيلي (من أشهرهم الحسن بن الصباح) رفضوا البيعة للمستعلي ونادوا بإمامة نزار وأبنائه من بعده. وهكذا أصبح للشيعة الإسماعيلية فرعان: المستعلية أو (الإسماعيلية الغربية) والنزارية أو (الإسماعيلية الشرقية)[2].

---

(١) خطط المقريزي، جـ ١، ص ٤٢٣.

(٢) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين)، ص ٢٨ / ٤٥.

١ ــ الإسماعيلية المستعلية :

قد استمر الإسماعيلية المستعلية في حكم مصر، وتولى بعد المستعلي ابنه الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ــ ٥٢٤هـ) الذي ولي الإمامة وله من العمر خمس سنوات وأنفق وقته في اللهو والمجون تاركاً أمر الدولة لوزرائه، حتى قتلته الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤هـ، وعُيِّنَ من بعده أبن عمه الحافظ لدين الله عبدالمجيد بن محمد بن المستنصر إماماً بالنيابة أو إماماً مستودعاً (٥٢٤ ــ ٥٤٤هـ). ثم دعا الحافظ لنفسه من بعد بالإمامة الكاملة خلافاً لتقاليد الإسماعيلية في تولي الإمامة ووراثتها والتي تجعلها محصورة في الأعقاب فقط. وقد بدأ أمر الفاطميين يضعف في مصر بعد ذلك واستطاع القائد صلاح الدين الأيوبي أن يضع حداً لوجودهم السياسي فيها عام ٥٦٧هـ[١].

(أ) **الصليحيون في اليمن**: وقد واكب ضعف الفاطميين في مصر، ظهور فرع جديد للشيعة المستعلية في اليمن، حيث عرفوا باسم الإسماعيلية الطيبية واستطاعوا إقامة دولة لهم هي الدولة الصليحية. ذلك أنه في اليمن، التي كانت المهد لأول دولة إسماعيلية قام أحد دعاة الإسماعيلية ويسمى علي بن محمد الصليحي بثورة أخضع بها اليمن جميعها لسلطانه، كما ضم إليه الحجاز أيضاً وتطلع لفتح العراق وانتزاع السلطة من العباسيين لولا أن قتل عام ٤٥٩هـ. وقد بدأت دعوة الصليحي باسم الإمام الفاطمي المستنصر بالله صاحب مصر، ولكن حينما قتل الآمر بأحكام الله رفض الإسماعيلية باليمن الإعتراف بإمامة خلفه الحافظ عبد المجيد لأن إمامته غير شرعية وزعموا أن للآمر ولداً[٢] وأن إحدى زوجاته كانت حاملاً وأنها وضعت طفلاً ذكراً اسمه أبو القاسم ويلقب بالطيب بن الآمر وأنَّ أحد الدعاة خاف عليه فهرب به إلى اليمن. ومن ثم نادى إسماعيلية اليمن بإمامته وتكفل الصليحيون بكفالة هذا الإمام وأبنائه الذين دخلوا جميعاً في

---

(١) انظر ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (عبد المنعم ماجد)، دار المعارف، مصر ١٩٦٨، ص ٤٤١ / ٤٩٦.

(٢) وتورد مصادر الإسماعيلية نص رسالة بعث بها الآمر بأحكام الله إلى السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحية (٤٧٧ ــ ٥٣٢هـ)، يبشرها فيها بولادة ابنه الطيب الملقب بأبي القاسم وذلك في يوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مائة، انظر: تاريخ اليمن (نجم الدين عمارة اليمني)، ص ٢٣٨ / ٢٣٩.

دور الستر. وقد كان هذا الحدث بداية لانفصال الدولة الصليحية باليمن عن الشيعة الفاطميين في مصر. وقد استمرت الدولة الصليحية ملتزمة بتعاليم الشيعة الإسماعيلية حتى وفاة الملكة أروى بنت أحمد عام ٥٣٢هـ. وبعد وفاة الملكة أروى بدأ أمر الدولة الصليحية يضعف حتى انقرضت عام ٥٦٣هـ.

وقد نهجت الدولة الصليحية نهج الحركات الباطنية من قبل، وقد كشف محمد بن مالك، أحد علماء السنة في اليمن في المائة الخامسة للهجرة، والذي كان معاصراً لازدهار هذه الدولة، كشف عن انحراف الصليحيين وتعاليمهم الباطنية، فقد انخرط محمد بن مالك في سلك أتباع هذه الدولة، وصور من الداخل حقيقة أمرهم، ويقول عن الوالي الصليحي الذي كان معاصراً له: «إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكلبين، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل ويخدعون من يقع في حبائلهم بروايات عن النبي ﷺ محرفة وأقوال مزخرفة ويتلون عليه القرآن على غير وجهه ويحرفون الكلم عن مواضعه، وينهجون النهج الباطني القائم على نظرية الظاهر والباطن، ويكشفون لمن تبعهم أن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لممثولات محجوبة، وما عرف الصلاة وما فيها إلا من وقف على باطنها ومعانيها فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه، فالزكاة مفروضة في كل عام مرة، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار». ويبينون له كذلك أن لكل شيء ظاهراً وباطناً وفقاً لقوله تعالى (وذروا ظاهر الإثم وباطنه)[1]. وقوله (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن)[2]. والظاهر ما تساوي فيه الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس عن العلم به فلا يعرفه إلا القليل، ومن ذلك قوله تعالى (وما آمن معه إلا قليل)[3] (وقليل ما هم)[4]. وقوله (وقليل من عبادي الشكور)[5] فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم[6].

(١) سورة الأنعام، الآية ١٢٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٣.
(٣) سورة هود، الآية ٤٠.
(٤) سورة ص، آية ٢٤.
(٥) سورة سبأ، الآية ١٣.
(٦) كشف أسرار الباطنية (محمد بن مالك الحمادي)، ص ١١ — ١٢.

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد «وعلي» صلى الله عليهما لأنهما سبعة أحرف!! فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتي الزكاة، وبهذا يوهمون من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي ﷺ فيقبل كثير من الناس بذلك ويقع في مذهبهم، لأنه مذهب الراحة والإباحة، يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله. فإذا قبل المدعو هذا التفسير الباطني طلب منه أن يدفع قرباناً يتقرب به إلى الإمام فيحط عنه الصلاة وغيرها من الفرائض التي تعتبر في رأيهم إصراً وأغلالاً. ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر ويخبره الداعي أنهما رمزان لأبي بكر وعمر لمخالفتهما لعلي ولظلمهما له وأخذهما الخلافة منه. أما الصوم فيفسره الداعي بأنه كتمان أسرار الدعوة، ويفسر بناءً على هذا الآية، (فمن شهد منكم الشهر فليصمه)[1]، بأنها تعني كتمان الأئمة في وقت الاستتار خوفاً من الظلمة. ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم الوارد في قوله تعالى، (إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا)[2]. فلو كان الله عنى بالصيام ترك الطعام، لقال فلن أطعم اليوم شيئاً، فالصيام إذن هو الصمت عن الكلام[3].

وبالمثل يفسر الباطنية الطهارة بأنها طهارة القلب، ويقولون «إن المؤمن طاهر بذاته والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره. وأن الجنابة هي موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن. ويفسر الداعي معنى (فإن كنتم جنباً فاطهروا) بأنها تعني: «فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا»، فاعرفوا العلم الباطن الذي هو حياة الأرواح، وهو كالماء الذي هو حياة الأبدان. قال الله تعالى (وجعلنا من الماء كل شي حي)[4]. وقول الله تعالى، (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق)[5]، فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، وينتهي الأمر بأن يباح للإنسان ترك الغسل من الجنابة[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥.

(٢) سورة مريم، الآية ٢٦.

(٣) كشف أسرار الباطنية، ١٢ / ١٣.

(٤) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

(٥) سورة الطارق، الآية ٥ — ٦.

(٦) كشف أسرار الباطنية، ص ١٣ — ١٤.

ثم تأتي المرحلة الأخيرة ــ منتهى الأمر وغاية السعادة ــ فيتلو الداعي (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)[1] . فيقول المخدوع «ألهمني إياها ودلني عليها» فيتلوا عليه (قد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)[2]. ثم يقول له: أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا؟ فيقول وكيف لي ذلك؟ فيتلو عليه (وأن لنا للآخرة والأولى)[3] . ويتلو عليه قوله تعالى (قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)[4]. والزينة هنا ما خفى عن الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك، وذلك معنى قوله تعالى (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن)[5]. والزينة مستورة غير مشهورة. ثم يتلو قول الله تعالى (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)[6]. فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة. لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب وأهل العقول، لأن المستحسن من الشيء ما خفي ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة، وسميت الجن جناً لاختفائهم عن الناس، والمجنة المقبرة لأنها تستر من فيها، والترس المجن لأنه يُستَتَرُ به، فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل. ثم يدعى هو وبناته وزوجته إلى المشهد الأعظم، «حتى إذا جن الليل ودارت الكوؤس وحميت الرؤوس، وطابت النفوس، أحضر الجميع حريمهم فيدخلن عليهم من كل باب وأطفأوا السرج والشموع وأخذ كل واحد ما وقع عليه في يده[7]». ورغم تشكيك البعض في صحة تفاصيل ما ورد في مثل هذه الرواية[8]. فإنها لا شك تمثل جانباً من حقيقة الدعوة الباطنية والتي نراها تتكرر في عدة دوائر باطنية، وقد ذكرها معظم من أرخوا لهذه الجماعات والتيار الذي يمثلونه.

(ب) **البهرة**: بعد نهاية الدولة الصليحية، لم يكن للإسماعيلية المستعلية أو

(١) سورة السجدة، الآية ١٧.
(٢) سورة ق، الآية ٢٢.
(٣) سورة اليل، الآية ١٣.
(٤) سورة الأعراف، الآية ٣٢.
(٥) سورة النور، الآية ٣١.
(٦) سورة الواقعة، الآية ٢٢ ــ ٢٣.
(٧) انظر: كشف أسرار الباطنية، ص ١٤ ــ ١٥.
(٨) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار)، جـ ٢، ص ٤٣٠ / ٤٣١.

الشيعة الطيبية أي أثر في الحياة السياسية باليمن بل التزموا بمبدأ «التقية» وانصرفوا إلى التجارة التي أعطتهم الفرصة لنشر دعوتهم الإسماعيلية في الهند حيث اعتنقها جماعة من الهندوس، وعرف أتباعها باسم الشيعة البهرة «التجار».

والبهرة اليوم متفرقون في بلاد الهند وباكستان وعدن، وتوجد منهم طائفة بجبال حراز باليمن الشمالي يطلق عليهم اسم القرامطة أو الباطنية[1]. ويعتبر البهرة أكثر الشيعة تعصباً لمذهبهم ومحافظة على عقائدهم ولا زالوا يتمسكون بزي خاص للنساء والرجال يميزهم عن غيرهم، ولهم أماكن خاصة للعبادة يطلقون عليها «اسم جامع خانة» لا يدخلها غيرهم. كما أنهم يرفضون أن يقيموا الصلاة في المساجد التي لغيرهم من المسلمين. ورغم اتفاق البهرة ظاهرياً مع غيرهم من المسلمين في العبادات والشعائر فإنهم يعتقدون عقائد باطنية بعيدة كل البعد عن معتقد أهل السنة والجماعة. فهم مثلاً يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون، ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماماً، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام المستور من نسل الطيب بن الآمر، ويؤدون شعائر الحج كما يؤديها

---

(١) ينقسم البهرة إلى طائفتين تسمى إحداهما الداودية نسبة إلى داود بن عجب شاه «الداعي المطلق» مات عام ٩٩٩هـ (١٥٩٠م)، وهناك فرع آخر يسمى السليمانية، وينسب إلى سليمان بن الحسن «الداعي المطلق»، توفي سنة ١٠٠٥ / ١٥٩٦. ورئيسها علي بن الحسن، وبعد وفاته عام ١٣٩٠هـ تولى الأمر الشيخ حسن المزامني ومحل إقامته بنجران، وتنتشر هذه الطائفة في قبيلة يام باليمن ويعرفون بالمكارمة، ويقدس هؤلاء زعيمهم ويقال إنه ينتحل مذهب البابوات من صنع صكوك لأتباعه على قطع في الجنة!! وبعض أفراد هذه الطائفة يقيمون في الهند وباكستان، انظر: القرامطة (طه الولي)، ص ٣٥، إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة)، ص ٢٤٠، الإمام الشوكاني مفسراً (محمد حسن بن حمد الغماري) «دار الشرق» ط. أولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م. ص ٤٣. وتنتشر الداودية بصفة عامة في الهند، وتوجد جماعات وأفراد يتبعون هذه الطائفة في أنحاء متفرقة من العالم. ويقدر عددهم في الهند بحوالي مائتي ألف ٢٠٠,٠٠٠، وخارج الهند يقدر عددهم بحوالي ٧٥,٠٠٠. وتوجد أكبر تجمعاتهم في تنزانيا (٥,٥٠٠) ومدغشقر (٦,٥٠٠) وكينيا (٨,٨٠٠) كما توجد أعداد منهم في الكويت (٢٥٠٠) واليمن (٢٥٠٠) ودبي (٧٥٠) والبحرين (٥٠٠) وعدن (٩٥٠)، انظر: THE BOHRAS, (A.A. ENGINEERS), VIKAS PUBLICATION HOUSE, 1980, PP. 142-45.

المسلمون ولكنهم يقولون إن الكعبة التي يطوفون حولها هي رمز للإمام[١]. وهكذا يذهبون في عقائدهم مذهباً باطنياً يلتقي مع التيار الباطني العام.

والبهرة الهنود يعتقدون بغيبة الإمام ويعلنون ولاءهم له ويقدسون زعيمهم الروحي (الداعي) الذي يعتبرونه وكيلاً للإمام الغائب[٢]، ويطيعونه من ثم طاعة عمياء. وقد استغل هو هذه التبعية وفرض عليهم ضرائب عجيبة يهدف منها إلى زيادة ثروته، واعتبر أداءها ديناً فمن يخالف تقاليد الطائفة عليه أن يدفع ضريبة للزعيم، بل أن من يريد الحج عليه أن يدفع ضريبة ويلتزم بالإقامة في الفنادق التي أقامها زعيم الطائفة في مكة والمدينة وأماكن «الزيارة» بالعراق، والتي تعرف «بالبهرة خانة[٣]».

كما غالى زعيم طائفة البهرة في الهند في تسخير أتباعه وإذلالهم إلى درجة أصبحوا فيها آلات مسخرة في يده، فلا يتعلم أحدهم ولا يعمل عملاً أو يتقلد وظيفة ولا يشرع في عمل تجاري إلا بعد مباركة الزعيم. وقد شعرت طوائف من البهرة بهذا الضيم ومن ثم حاولوا التخلص من نير زعيمهم وقاموا بحركات إصلاحية عديدة[٤]، ولكن استطاع زعماء البهرة على اختلافهم أن يقضوا عليها، ووضع الزعماء بدهاء قانوناً تقاطع الطائفة بموجبه كل من يتحدى، أو يخرج على تعاليم الزعيم، وتلاحق كل من تحدثه نفسه بالقيام بحركة مضادة له، بل وانتهى الأمر ببعض هؤلاء المعارضين إلى القتل والحرق وهدم منازلهم ودورهم[٥]. ورغم أن نفوذ هؤلاء الزعماء قد تقلص إلى حد ما بعد استقلال الهند فإن الزعيم الحالي للبهرة «الدكتور محمد برهان الدين» يمارس إلى حد كبير نفس هذه السياسة التي كان يتبعها سلفه تجاه أتباعه. وقد ذكر بأن الحكومة الهندية لديها ما يثبت أن دخله السنوي لا يقل عن ثمانية ملايين جنية استرليني، كل ذلك من الضرائب التي يفرضها على أتباعه، إذ أن هناك ضريبة على الأم عندما تحمل الجنين في أحشائها، وضريبة أخرى إذا مات الجنين قبل ولادته، وضريبة ثالثة على المولود بعد ولادته وضريبة رابعة عندما ينمو الطفل، ويفرض على أهله أن يذهبوا به

---

(١) طائفة الإسماعيلية، ص ٥٢ ــ ٥٣.

(٢) عن تاريخ البهرة في الهند، انظر: THE BOHRAS, PP. 100-141.

(٣) طائفة الإسماعيلية، ص ٥٨ / ٥٩.

(٤) THE BOHRAS, PP. 165-281.

(٥) I bid, PP. 293-302.

إلى زعيم الطائفة ليعلن تعويذه. كما أن هناك ضريبة على جثة الميت يدفعها أهله لزعيم الطائفة ليصدر بموجبها (صك الغفران) يعلق على صدر الميت ليدفن معه حتى يدخل الجنة!! وكلما زادت قيمة هذا الصك ارتفعت درجات الميت في الجنة(١)!!.

وذكر أيضاً أن مكتب زعيم الطائفة يصدر تذاكر لصلاة العيد وتختلف قيمة التذاكر في الصف الأول عن قيمتها في الصف الأخير، فتقل قيمة التذكرة من صف إلى صف حسب درجة الابتعاد عن زعيم الطائفة. ويقال أن زعيم طائفة البهرة الحالي يستوحي تصرفاته هذه من كتاب سري قام أبوه الزعيم السابق بتأليفه عام ١٣٣٥هـ ليكون دليلاً تهتدي به الطائفة وتسير عليه. واسم الكتاب «نور الحق المبين» وهو دعوة صارخة لتقديس الزعيم حيث يقول عنه أنه إلٰه الأرض ويكفي أن تطوف حول بيته حتى تكون كمن يطوف حول بيت الله الحرام. كما ادعى المؤلف تفسيراً غريباً لقول الله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) فقال: إن هذا الحبل له طرفان.. أحدهما في يد الله، تعالى الله عن ذلك، والآخر في يده.. والأدهى من ذلك، كما قيل، أن يأمر الزعيم أتباعه بالسجود له باعتبار ذلك فرضاً دينياً على كل أبناء الطائفة لأنه إلٰه الأرض كما تقول تعاليم البهرة(٢)».

٢ ـــ الإسماعيلية النزارية* :

(أ) الحشاشون :

أما الإسماعيلية النزارية فقد كانت أكبر شأناً وأجل خطراً من المستعلية، إذ أنهم لعبوا دوراً سياسياً كبيراً في كل من: إيران والهند والشام. وقد تكونت هذه

(١) THE BOHRAS, PP. 159-161.

(٢) مجلة التوحيد، عدد ٣ لسنة ٩ ربيع الأول ١٤٠٠هـ نقلاً عن مجلة روز اليوسف المصرية، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠م.

(*) يصف الشهرستاني الإسماعيلية النزارية بأنها «الدعوة الجديدة» تمييزاً لها عن الإسماعيلية القديمة، وتتميز هذه الدعوة عن الإسماعيلية القديمة بتمسكها بتعليم معلم هو الإمام، وإنكار المعرفة العقلية. انظر: الملل والنحل، جـ ١، ص ١٩٥، وما بعدها.

وقد بين الغزالي بصورة أكثر وضوحاً ما بني عليه هؤلاء النزارية مذهبهم فقال: «وأما =

الفرقة النزارية على يد الحسن بن الصباح، الذي كان، كما يقول عن نفسه، من الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، ثم أقنعه أحد دعاة الإسماعيلية بتبني المذهب الإسماعيلي وأصبح أحد دعاتهم. وذهب إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وعلم منه أمره باستخلاف ابنه نزار[1]، ثم عاد إلى فارس كداعية إسماعيلي، ولما علم بما أحدثه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وتحويله الإمامة إلى المستعلي بدلا من نزار، انتصر الحسن بن الصباح لنزار وأصبح يدعو له ولأبنائه، وجعل من نفسه نائباً للإمام المستور من ولد نزار[2]. وأخذ يدعو لمذهبه هذا بين الفلاحين الإيرانيين وجمع حوله العديد من الأتباع وكون من بينهم جماعات فدائية دربها تدريباً خاصاً على الطاعة العمياء والتضحية. واتخذ أسلوب الاغتيالات الفردية وسيلة لتحقيق أهدافه، وإزالة كل من يقف في طريقه أو يخاصمه. وقد كان من ضحايا هذا الأسلوب الإرهابي نظام الملك (٤٨٥هـ) الوزير السلجوقي الذي بني المدارس النظامية وإليه نسبت، والذي كان زميلاً

= التعليمية فإنهم لقبوا بها لأن مبدأ مذاهبهم إبطال الرأي وإبطال تصرف العقول، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم، وأنه لا مدرك للعلوم إلا التعليم. ويقولون في مُبْتَدأ مجادلتهم: الحق إما أن يعرف بالرأي وإما أن يعرف بالتعليم. وقد بطل التعويل على الرأي لتعارض الآراء وتقابل الأهواء واختلاف ثمرات نظر العقلاء فتعين الرجوع إلى التعليم والتعلم. وهذا اللقب هو الأليق بباطنية هذا العصر، فإن تعويلهم الأكثر على الدعوة إلى التعلم وإبطال الرأي وإيجاب اتباع الإمام المعصوم، وتنزيله ــ في وجوب التصديق والاقتداء به ــ منزلة رسول الله (ﷺ)». فضائح الباطنية، ص ١٧.

(١) انظر: مذاهب الإسلاميين (عبد الرحمن بدوي)، جـ ٢، ص ٣١٧ / ٣٢٠، نقلاً عن ترجمة ذاتية للحسن بن الصباح. طائفة الإسماعيلية، ص ٦٦ / ٦٧، الكامل في التاريخ (ابن الأثير) حوادث سنة ٤٨٧، جـ ١، ص ٢٣٧ / ٢٣٨.

(٢) رغم أن نزار قد قتل بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما، فإن المصادر الإسماعيلية النزارية تزعم بأنه لم يمت بل تمكن من مغادرة الإسكندرية سراً أثناء حصارها من قبل الأفضل بن بدر الجمالي، وأنه اتجه إلى بلاد فارس حيث استقر به المقام في جبال الطالقان وأسس الدولة النزارية هناك. انظر: تاريخ الدعوة الإسماعيلية (مصطفى غالب)، ص ٢٥٥. وهذه الرواية كما يقــول عبد الرحمن بدوي، ليس لها سند تاريخي ولم يذكرها أي مؤرخ، وقصد من اختراعها إلى الربط بين نزار وبين إسماعيلية إيران في ألموت وسائر القلاع الإسماعيلية، مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٣٥٥ / ٣٥٦.

للحسن بن الصباح في الدراسة أيام طفولتهما. كما استطاع الحسن، عن طريق هؤلاء الفدائيين أن ينتقم لنزار ويقتل الإمام الآمر بأحكام الله بن المستعلي، كما سبق أن أشرنا. وهكذا أشاعت هذه الجماعات الرعب والفزع في أنحاء الخلافة العباسية، بل إن الحسن بن الصباح استطاع أن يستولي على قلعة «آلموت» أو «عش العقاب» عام ٤٨٣هـ[1]، جنوبي بحر قزوين، وأقام فيها العديد من الحصون، وأسس بذلك الدولة الإسماعيلية الشرقية التي عرفت في التاريخ بأسماء عديدة: مثل الإسماعيلية النزارية، الباطنية، السبعية التعليمية والحشاشين والملاحدة والسفاكين. وأقام الحسن داخل هذه الحصون والقلاع مجتمعاً مغلقاً يحيطه السر والكتمان، وتنطلق منه جماعات الإرهابيين والدعاة لنشر الدعوة والرعب في نفوس الناس. وقد قامت الخلافة العباسية ببذل الجهود لحربهم عسكرياً وفكرياً، ولكن كل المحاولات العسكرية باءت بالفشل وأدت إلى مزيد من القتل والإرهاب وسفك الدماء. ومن أبرز الجهود العلمية التي كتبت ضد الإسماعيلية وكان لها أثر كبير في صد مزاعمهم، كتاب «فضائح الباطنية» للإمام الغزالي.

وكان الحسن بن الصباح ومن أتى بعده من حكام «ألموت» يقولون عن أنفسهم إنهم دعاة الأئمة من نسل نزار، وقد كان أولئك الأئمة المزعومون في ستر تام ولم يعرف عنهم أي شيء.. وقد استخلف الحسن (توفي سنة ٥١٨هـ) من بعده اثنين من أعوانه هما «كيا بيزرك» و«أبو علي» داعي الدعاة، وجعل الأول قائداً للإرهابيين ومسئولا عن الأمور الدنيوية، وجعل للثاني أمور الدعوة الروحية. ثم توالى أبناء كيا بيزرك وأحفاده على ولاية أمر الإسماعيلية في «ألموت» حتى جاء الحسن الثاني بن محمد (٥٥٨هـ) حفيد كيا بيزرك، وكان ذا عقلية فلسفية قوية درس مؤلفات كبار مفكري الإسماعيلية السابقين، وكتب الفلاسفة لا سيما ابن سينا، كما درس كتب التصوف، وبدأ في الدعوة إلى تأويل روحي للإسماعيلية مختلف عما ألفه الإسماعيلية في عهد أبيه وجده. وكان الحسن الثاني فصيحاً عالماً، فاستطاع التأثير في أتباع الإسماعيلية في ألموت وقلاع الجبل، وأصبحت له عندهم مكانة كبيرة، ويبدو أن بعض هؤلاء قد أخذوا يمجدونه إلى درجة أن زعموا أنه هو الإمام المنتظر، فاضطر أبوه إلى وقف هذه الحركة قائلاً إن الإمام يجب أن يكون ابن إمام، والحسن ليس كذلك، بل يروي

---

(١) انظر الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٩٥.

أنه اضطر إلى قتل مائتين وخمسين من أتباع الحسن ونفي مثلهم[١].

وقد ادعى الحسن الثاني أنه تلقى رسالة من الإمام المستور جاء فيها: أن الحسن بن كيا بيزرك هو خليفتنا وداعينا وحجتنا، فعلى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه في الأمور الأخروية والدنيوية وأن يأتمروا بأوامره ويعتبروا كلماته من وحي الله، وأن لا يخالفوا له أمراً، بل يتقيدوا بها كما لو كانت من لدنا[٢].

ويقال إنه بعد أن قرىء هذا الكتاب على الناس، خطبهم الحسن الثاني وأمرهم بطرح جميع التكاليف الدينية، والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية لأن النبي ﷺ قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه وهو الذي يتحمل بدلهم الحساب يوم القيامة، إن أطاعوه طاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو. وبذلك دخلت الإسماعيلية دوراً جديداً هو «دور القيامة» أو عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج، وعدم التقيد بما كان عند الإسماعيلية في دور الظهور الأول. وقد وجدت هذه الدعوة استجابة من المجتمع الإسماعيلي في «ألموت».

ثم اتخذ الحسن الثاني خطوة أخرى في عام ٥٥٩هـ، فأعلن نفسه أنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر بالله الفاطمي وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً بقولهم «على ذكره السلام». وبذلك أصبح حكام آلموت بعد الحسن الثاني والذين جاءوا بعده من سلسلة النسب الفاطمي[٣]. وهكذا أتى الحسن الثاني بثلاثة تجديدات ما لبث النزارية في كل مكان أن قبلوها على درجات متفاوتة:

١ ــ الأول أنه أعلن نفسه خليفة لله في أرضه، ولم يعد مجرد داع كما كان

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٣٤٣.

(٢) طائفة الإسماعيلية، ص ٨١، مذاهب الإسلاميين، جـ ٢، ص ٣٤٤ / ٣٤٥.

(٣) يمكن أن يفهم بأن النسب الفاطمي هنا يقصد به النسب الروحي بناء على تصور الإسماعيلية للبنوة والأبوة الروحية كما ذكرنا من قبل. انظر صفحات ٢٠٠ ــ ٢٠١، وانظر كذلك: طائفة الإسماعيلية، ص ٨٢، ولكن يبدو أن الحسن الثاني كان يقصد أنه حفيد نزار حقيقة، ولتفسير الصلة النسبية بينه وبين حفيد نزار المزعوم، أورد النزارية عدة روايات مختلقة، انظر: فرقة النزارية، تعاليمها ورجالها في ضوء المراجع الفارسية (السيد محمد العزاوي)، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٠، ص ١٥٧ ــ ١٥٨.

أسلافه في آلموت.

٢ ــ وأنه نسخ حكم الشريعة.

٣ ــ وأنه أعلن قيامة الموتى،ونهاية الدنيا، وأن الذين استجابوا لدعوته قد بعثوا الآن للحياة الباقية، وإن من لم يستجيبوا له قضي عليهم بالفناء[١]. وقد فسر النزارية القيامة بأنها الوقت الذي يصل فيه الخلق إلى الحق تعالى وتظهر دقائق الحقائق، وتتجلى بواطن الخلائق، وفيه تتوجه القلوب إلى الله، وتترك الرسوم الشرعية والعادات والعبادات التي التزموها مؤقتاً، وتتوجه النفوس والأرواح إلى الحضرة الإلهية[٢]»، وبناء على هذا اعتبروا إسقاط التكاليف الشرعية تكليفاً دينياً، ويقال إن الحسن الثاني وابنه محمد الذي تولى الأمر من بعده (٥٦١ ــ ٦٠٧هـ/ ١١٦٦ ــ ١٢١٠م) كانا متشددين في فرض التعاليم الجديدة وكانا يريان أن الاستمساك بالأحكام الشرعية الظاهرة إثم لا يعدله إلا إغفالها أيام أن كان العمل بها مفروضاً بموجب التقية، لذلك أوجبا النكال والقتل والرجم والتعذيب على كل من استمسك بحكم الشريعة في دورة القيامة أو اشتغل بالعبادة الظاهرة وواظب على الرسوم الجسمانية[٣]. وقد حل محل الشريعة عندهم ما يعرف بأركان الحقيقة: فالشهادة هي أن تعرف الله بالله (أي تعرف الله بالقائم). والصلاة هي أن تتحدث دائماً عن عرفانك لله (أو القائم). والصلاة هي أن تجتنب الآداب والسنن الماضية (أي الأحكام الشرعية)، والصوم هو أن تلتزم التقية في حديثك مع المبطلين حتى تظل صائماً. والزكاة هي أن تيسر لغيرك ما يسره لك الله تعالى (من العلم والمال)، والحج هو أن تنفض يدك من هذه الدار الفانية وتجد في طلب الدار الباقية، والجهاد هو أن تفنى ذاتك في ذات الله[٤]. ويزعم النزارية أن التمسك بأركان الحقيقة أشق من التمسك بأوامر الشريعة ويقولون في ذلك: «ولكي تكون رجل حقيقة لابد من أن تؤدي أركان الحقيقة، فإن الوفاء بأوامر الشريعة ونواهيها وتكاليفها أيسر أمراً من أداء أركان الحقيقة، ذلك لأن رجل الشريعة يستطيع أن

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٣٤٥.

(٢) فرقة النزارية، تعاليمها ورجالها في ضوء المراجع الفارسية (السيد محمد العزاوي)، ص ١٧٥.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٧٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

يؤدي التكاليف الشرعية في ساعتين يتفرغ بعدهما للكسب وأمور الدنيا، ومع ذلك فهو ناج بحكم الشريعة[1]».

ولكن هذا الدور «دور القيامة» لم يستمر طويلاً، إذ قام الحسن الثالث ــ جلال الدين ــ حفيد الحسن الثاني، والذي تولى الخلافة عام ٦٠٧هـ وأمر بإعادة الأمور إلى سابقها، وألغى دور (عدم القيام بالفرائض). ورد الإسماعيلية إلى عباداتهم وشعائرهم، فأمر ببناء المساجد وإقامة الآذان للصلاة، وقرَّب إليه الفقهاء والقراء وراسل الخليفة العبَّاسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ــ ٦٢٢هـ) وغيره من أمراء المسلمين وملوكهم مؤكداً لهم عودته إلى التعاليم الإسلامية والتزامه بإقامة شعائر الدين وفرائضه، فَسُرَّ المسلمون بذلك وأطلقوا على الحسن الثالث العديد من الألقاب من بينها «المسلم الجديد». وذهب الحسن الثالث أبعد من هذا، فقام بإحراق كتب الحسن بن الصباح وكتب الإسماعيلية السرية أمام أحد الوفود الإسلامية الزائرة وطعن في الحسن بن الصباح وكل من تولى أمر الإسماعيلية بعده ورماهم بالكفر والإلحاد. كما بعث الحسن الثالث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج، وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة وعقد معاهدات صلح وتعاون مع كل أعدائه من الملوك والأمراء.

ولم يعجب هذا المسلك بعض أتباع الحسن الثاني، إذ رأوا فيه خروجاً على تعاليم أئمة الدعوة الإسماعيلية السابقين، كما أنه يقود إلى إلزامهم بالعبادات والشعائر والشرائع بعد تحللهم منها وتحررهم من الالتزام بها[2]. فكل هذه أمور أغضبت هذه الطائفة فتآمروا على التخلص من محمد بن الحسن، الملقب بعلاء الدين، والذي ولي الأمر بعد وفاة أبيه عام ٦١٨هـ، فطعنه أحد الفدائيين فقتله عام ٦٣٥هـ وانتهت بذلك الجهود التي بذلت لرد هذه الطائفة الضالة إلى رشدها، وعادت الإسماعيلية مرة أخرى إلى ما كانت عليه من إرهاب واغتيالات وانحراف عن الدين وضلال، واستمرت جماعات الإسماعيلية منغلقة في «آلموت» تمثل جزيرة في وسط العالم الإسلامي حتى كتبت نهايتها على يد هولاكو عام

(١) فرقة النزارية، ص ١٧٦.

(٢) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٠٨ ــ ٤٠٩، طائفة الإسماعيلية، ص ٨٢ ــ ٨٣.

(٦٥٤هـ) الذي دمر قلاعهم من بين ما دمر من العالم الإسلامي[1]. وقد امتد نشاط الإسماعيلية النزارية من «ألموت» إلى الشام حيث ظهرت جماعات من الشيعة تبنت أسلوب الحسن بن الصباح في الاغتيالات والنهب، ودخلوا في صراع عنيف مع سكان الشام ودمشق وحلب وما جاورهما، وبرز من بينهم زعيم خطير اسمه راشد الدين سنان ويلقب بشيخ الجبل[2]، سار على طريقة الحسن الثاني، وزاد عليه بإضافة آراء جديدة إلى عقيدة الإسماعيلية كالقول بتناسخ الأرواح. ورغم أن سناناً كان معادياً لصلاح الدين الأيوبي وأنه حاول التخلص منه[3]، فإن صلاح الدين استطاع أن يسوس هذه الجماعة الإرهابية، ويستفيد منهم في حروبه مع الصليبيين[4]، ورغم هذا فإن موقف سنان من الحرب ضد الصليبيين كان موقفاً مشبوهاً لا تمليه الغيرة الإسلامية، بل الاعتبارات السياسية وحدها وكذلك كان موقف الإسماعيلية في سوريا طوال الحروب الصليبية كلها: تمليه الاعتبارات السياسية الخاصة بالطائفة دون اعتبار للغيرة الإسلامية[5]. وظل أمر الإسماعيلية بالشام يضعف تارة ويقوى تارة أخرى إلى أن استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس عام ٦٧٢هـ.

(ب) الإسماعيلية الأغاخانية :

ابتداء من القرن السابع الهجري اختفى الإسماعيلية النزارية من الحياة العامة ولم يسمع عنهم شيء حتى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث ظهر في إيران رجل شيعي يدعى حسن علي شاه (١٢١٩ ـ ١٢٩٨هـ) جمع حوله عدداً من

(١) جامعة التواريخ (رشيد الدين فضل الله الهمذاني) مجلد ثاني، جـ ١، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٩، مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٠٠ ـ ٤٠٧.

(٢) هو أبو الحسن بن سليمان بن محمد راشد الدين (توفي سنة ٥٨٨هـ) كان زميلاً للحسن الثاني، فلما تولى الأخير الولاية بعث به إلى الشام وتولى زعامة الحركة الإسماعيلية الباطنية في الشام. ويقال أن راشد الدين كان نصيرياً ثم تحول إلى الإسماعيلية. وكان على معرفة بالحيل والشعوذة، ومن القائلين بتناسخ الأرواح، وانتهى به الأمر إلى ادعاء النبوة ثم الألوهية وكتب رسالة يثبت فيها الألوهية لنفسه ويدافع عن ذلك. انظر: مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٣٦٩ / ٣٧٨.

(٣) تاريخ أبي الفداء (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل)، جـ ٣، ص ٦.

(٤) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٣٨٢ / ٣٨٦.

(٥) تاريخ أبي الفداء، جـ ٤، ص ٦ ـ ٧.

الإسماعيلية وغيرهم وقام بأعمال هدد بها الأمن وأقلق بها السلطات في إيران حتى ذاع صيته وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وانضمت إليه جماعات كثيرة إعجاباً به أو طمعاً في مكاسب مالية تأتيهم عن طريقه[1]. وواكب ظهور هذه الثورة التي هددت الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران، ظهور الإنجليز كقوة لها مطامع في بلاد فارس، ومن ثم اتصلوا بحسن علي شاه وعضدوه ومنوه حكم فارس. وفعلاً قام حسن علي شاه بثورة عام ١٨٤٠م، كانت نهايتها الفشل والقبض على قائدها. ولكن الإنجليز تدخلوا وحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن يجلو عن إيران كلها وزين له الإنجليز الذهاب إلى أفغانستان ليكون صنيعة لهم هناك، ولكن الأفغانيين كشفوا عن هويته واضطروه إلى الرحيل إلى الهند، واتخذ من مدينة بومباي مقراً له. وأراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى، ومن ثم اعترفوا به إماماً للطائفة الإسماعيلية النزارية وخلعوا عليه لقب أغاخان ومنحوه السلطة المطلقة على اتباعه الإسماعيلية، فالتف حوله الإسماعيلية في الهند.

وهكذا تأسست الأسرة الأغاخانية، وصارت لهم إمامة الإسماعيلية النزارية وانتسبوا إلى الإمام نزار بن المستنصر بالله الفاطمي[2]. وأخذ الأغاخان ينظم أتباعه ويقوم على خدمتهم حتى وفاته عام ١٨٨١م/١٢٩٨هـ، وخلفه ابنه علي شاه في إمامة الطائفة وعرف باسم أغاخان الثاني (توفي سنة ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م)، وكان ذا ثقافة عالية ويجيد عدة لغات من بينها العربية، وعمل على نشر العلم بين أفراد طائفة الإسماعيلية وأنشأ عدة مدارس لهذه الغاية[3]. ثم تولى من بعده إمامة الطائفة ابنه أغاخان الثالث محمد شاه الحسيني (توفى سنة ١٩٥٧م/١٣٧٧هـ) وهو الشخصية التي ارتبطت شهرة الأغاخانية في هذا العصر بها، إذ كان للأغاخان الثالث شهرة واسعة طبقت الآفاق، وقد استغل هذه الشهرة وذلك النفوذ الذي اكتسبه من ثرائه وولاء أتباعه له في التمكين لطائفته، وإبراز دوره ودورها في كثير من المجالات، وعلى نطاق العالم الإسلامي بأسره. وكان الأغاخان الثالث يحب أن يعرف عنه أن غيور على الإسلام وحريص على مصالح المسلمين، وأراد

---

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط ٤، ص ٢٤١، طائفة الإسماعيلية، ص ١١٠ / ١١١.

(٢) طائفة الإسماعيلية ص ١١٢ / ١١٣

(٣) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط ٤، ص ٢٤١.

أن يثبت ذلك بمحاولاته العديدة لحل مشاكل المسلمين خلال النصف الأول من هذا القرن، إذ عرف عنه دفاعه عن الخلافة العثمانية ودفاعه عن حقرق الأتراك بعد سقوط الخلافة، وشارك في تأسيس الرابطة الإسلامية بالهند عام ١٩٠٧م، كما ساهم أغاخان الثالث في إنشاء جامعة «عليكره» الشهيرة بالهند عام ١٩١٠م والتي تجمع في مناهجها بين العلوم الحديثة والعلوم الإسلامية والعربية.

أما فيما عدا هذا فإن معتقدات الأغاخان ومعتقدات أتباعه معتقدات باطنية باطلة، كما أن سلوكه الأخلاقي وحياته الخاصة كان يسودها كثير من الشبهات والظنون. فالأغاخان نفسه من الذين يدينون بآراء وعقائد الإسماعيلية التي بشر بها الحسن الثاني[١] والتي انتهت بإبطال التكاليف ورفع الشريعة. وأتباع الطائفة الأغاخانية يدينون بهذه التعاليم بل ويعتقدون في الأغاخان أنه من نسل فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن ثم يقولون بعصمته وتقديسه ويبلغون به في التقديس درجة الألوهية وهو نفسه يقرهم على هذا ويؤيدهم ولا ينفي عن نفسه ما يصنعه به أتباعه. وحينما سأل مؤرخ الإسماعيلية محمد كامل حسين، الأغاخان الثالث قائلاً: لقد أدهشتني بثقافتك وعقليتك فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إلهاً؟ ضحك الأغاخان طويلاً، كما يقول محمد حسين، وعلت فهقهاته ودمعت عيناه من كثرة الضحك ثم قال: هل تريد الإجابة على هذا السؤال؟ إن القوم في الهند يعبدون البقرة! ألست خيراً من البقرة[٢]؟ وحياة الأغاخان الشخصية كانت انعكاساً لهذا الضلال في المعتقد والفساد في المذهب، إذ أنه اشتهر بحياته الصاخبة التي كان ينفقها بين موائد القمار وأروقة سباق الخيل وارتياد أماكن اللهو المشبوهة، كما عرف عنه أنه كان في شبابه زير نساء يتنقل بين الغانيات وبائعات الهوى، وحتى زيجاته المشروعة تعكس هذه الروح اللاهية العابثة، إذ أن من بين زوجاته الأربع نجد عارضة الأزياء، وفتاة من بائعات الحلوى والسجائر[٣]. وهكذا كان الأغاخان رجلاً دنيوي المظهر إلى حد كبير، ومشبعاً بأفكار الثقافة العصرية، ولا شيء في مظهره يذكرنا بمبادىء المذهب الذي ينبغي أن يمثله[٤]. وقد وصفه

---

(١) انظر صفحات ٣٠٢ ــ ٣٠٥ من هذا الكتاب.

(٢) طائفة الإسماعيلية، ص ١٢٦. ·

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٠ ــ ١٢١.

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام «جولد زيهر»، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦.

سومرست موم في تقديمه لمذكرات الأغاخان: «بأنه من عظماء رواد المسرح فقد أحب الأوبرا ورقص الأوبرا وهو إلى ذلك قارىء مواظب مجد، عمل بأمور وقضايا كان يتوقف عليها مصير أمم عديدة. وعني بتربية الجياد وجريها في حلبات السباق. وكانت له صداقات مع ملوك وأمراء يجري في عروقهم دم ملكي ومع مهراجات ونواب ملوك وفيلد مارشالات وممثلين وممثلات، ومدربين ومحترفي جولف وكواكب ومنظمي حفلات اجتماعية. وفضلاً عن ذلك فقد أسس جامعة وسعى بوصفه رئيساً للطائفة الإسماعيلية الواسعة الانتشار سعياً حثيثاً طيلة حياته لكي يزيد مادياً وروحياً رفاهية أتباعه العديدين[١]».

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأغاخان هذا صنيعة للإنجليز وقد استغلوه إلى حد كبير في تثبيت أقدامهم في الهند. إذ كان هو وأتباعه ممن يؤيدون سيادة الإنجليز على الهند. وقد وصف الأغاخان في بيان له رغبة الهنود في الإستقلال بأنها رغبة طائشة حمقاء ونزعة متهوسة سابقة لأوانها، في الوقت الذي أبرز فيه مزايا ومنافع حكم الإنجليز للهند[٢]. وقد توفي الأغاخان الثالث بسويسرا عام ١٩٥٧م ونقل جثمانه إلى أسوان ودفن بها. وقد أوصى الأغاخان الثالث أن يكون الإمام من بعده حفيده «كريم خان الحسيني».

ورغم أن أئمة الأغاخانية يعيشون حياة البذخ والترف في العواصم الأوربية ورغم الصورة اللاهية التي يظهر بها أولئك الأئمة، فإن أتباعهم لا زالوا يقدسونهم ويضفون عليهم العصمة وصفات الألوهية، ويدفعون لهم خمس ما يكسبون حتى أصبح الأغاخان من أثرى أثرياء العالم. ويتخذ الأغاخانية من «كراتشي» مركزاً لقيادتهم، وينتشر أتباعهم في شرق إفريقيا في نيروبي، ودار السلام وزنجبار وفي مدغشقر والكنغو والهند وباكستان*، كما توجد أقليات منهم في سوريا «سَلَمية»

---

(١) مذكرات أغاخان، دار العلم للملايين، ط. أولى ١٩٥٩، ص ١٥ / ١٦.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٤٦.

(*) في استطلاع لمجلة العربي الكويتية عن الهونزا في شمال باكستان، إكتُشِفَ أن الهونزا الذين يبلغ تعدادهم حوالي ثلاثين ألفاً، اسماعيليون باطنيون، اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في منتصف القرن التاسع عشر، وتركوا مذهبهم الإثنى عشرى، وهم يدينون بالولاء لأغاخان ويحتفلون من بين ما يحتفلون به من أعياد شيعية، بعيد ميلاده، وبذكرى =

ولبنان. ويبلغ مقدارهم قرابة عشرين مليوناً، ويعتبرون «كريم خان الحسيني» الخليفة الثامن والأربعين في سلسلة الأئمة الإسماعيلية[1].

= زيارته لهم في ٢٠ أكتوبر ١٩٦٠، ويصف الاستطلاع عقائد الهونزا بأنها اسماعيلية باطنية تتصادم مع العقائد الإسلامية وأركان الإسلام وتعاليمه. انظر: الهونزا، مسلمون عند سقف العالم «مجلة العربي» العدد ٢٨٩ (ديسمبر ١٩٨٢) ص: ١٢٢.

(١) الإسماعيليون عبر التاريخ (سليم حسن هش) «١٩٦٩» ص ١١٧.

الفصل السابع

النصيرية (العلويون)
أصولهم وعقائدهم وموقفهم من الإسلام

أصل طائفة النصيرية[1] :

يدعى النصيرية الانتماء إلى الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، ولكنهم في واقع الأمر يعدون من غلاة الشيعة الباطنية الذين تبنوا آراء منحرفة وعقائد باطلة انتهت بهم إلى الخروج من الإسلام. وهناك خلاف حول نسبة النصيريين هل إلى الجبال التي يقيمون فيها؟ أم إلى «النصاري»، للقرابة التي توجد بين معتقدات النصاري والنصيرية، أم إلى شخص يدعى ابن نصير؟ ويبدو أن هذا الرأي الأخير أقرب الآراء إلى الصحة، إذ أنه يتفق مع النسق العام الذي ينسب معظم الفرق إلى أسماء مؤسسيها[2]. وهناك أيضاً خلاف حول هوية ابن نصير الذي تنسب إليه هذه الطائفة، فبينما يذهب البعض إلى أن ابن نصير هذا كان غلاماً لعلي بن أبي طالب ومن ثم تعد هذه الفرقة من أوائل الفرق الغالية، يذهب رأي آخر، ويبدو عليه الرجحان، إلى أن ابن نصير مؤسس هذه الفرقة هو أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري، الذي كان مولى أو من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية الإثنى عشرية ويقال إنه لما مات الحسن، ادعى ابن

---

(١) النصيرية أنفسهم يرفضون هذه التسمية ويطلقون على أنفسهم اسم «العلويين» لأنهم من الطوائف التي تؤله أو تقدس علياً بن أبي طالب وتعبده، ويذهب النصيرية إلى أن هذا هو الاسم الأصلي للطائفة ولكن الأتراك حرموهم من هذا الاسم وأطلقوا عليهم اسم النصيرية نسبة إلى الجبال التي يسكنونها نكاية بهم واحتقاراً لهم. وأن الفرنسيين عند انتدابهم على سوريا في بداية هذا القرن أعادوا الاسم القديم للطائفة، واصدروا مرسوماً في ١ / ٩ / ١٩٢٠م سميت بموجبه جبال النصيرية بأراضي العلويين المستقلة، انظر تاريخ العلويين، ص ٤٠١ وما بعدها.

(٢) انظر طائفة النصيرية (د. سليمان الحلبي)، ص ٣٣ / ٣٦.

نصير أنه وكيل لابن الحسن «محمد» أو الباب له[1]، ثم ادعى أنه رسول الله وأنه نبي من قبل الله تعالى، وأنه أرسله علي بن محمد بن علي الرضا، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه، وادعى بعد ذلك الربوبية وقال بإباحة المحارم[2].

ويذكر سعد القمي في كتابه «المقالات والفرق» عن اتباع محمد بن نصير فيقول: «وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة علي بن محمد (علي الهادي)، في حياته فقالت بنبّوة رجل يقال له محمد بن نصير النميري، كان يدعي أنه نبي رسول وأن علي بن محمد العسكري أرسله، وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل والإخبات في المفعول به وأنه من الفاعل والمفعول به إحدى الشهوات والطيّبات، وأن الله لم يحرم شيئاً من

---

(١) يذهب الشيعة إلى أن لكل إمام باب، وأن أبواب الأئمة كانوا على النحو التالي :

١) على وبابه سلمان الفارسي.

٢) الحسن وبابه قيس بن ورقة المعروف بالسفينة.

٣) الحسين وبابه رشيد الهجري.

٤) علي زين العابدين وبابه عبد الله الغالب الكابلي.

٥) محمد الباقر وبابه يحيى بن معمر بن أم الطويل.

٦) جعفر الصادق وبابه جابر بن يزيد الجعفي.

٧) موسى الكاظم وبابه محمد بن أبي زينب الكاهلي.

٨) علي الرضا وبابه المفضل بن عمر.

٩) محمد الجواد وبابه محمد بن المفضل بن عمر.

١٠) علي الهادي وبابه عمر بن الفرات المشهور بالكاتب.

١١) الحسن العسكري وبابه أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري.

أما الإمام الثاني عشر: محمد المهدي بن الحسن العسكري، فلم يكن له باب ــ كما يدعي النصيريون ــ بل بقيت صفة الباب مع أبي شعيب محمد بن نصير.. انظر تاريخ العلويين، ص ٢٠١ / ٢٠٢، ولكن الشيعة الإمامية الإثنى عشرية لم تقر لأبي شعيب محمد بن نصير بهذه الصفة فانفصل عنهم وأسس طائفة النصيرية المنسوبة إليه.. ثم علل أتباعه انفصالهم فيما بعد.. بقولهم أنه لا يمكنهم أن يبقوا بدون مرجع ظاهر يقتدون به.. انظر تاريخ العلويين، ص ٢٣٥ وما بعدها.

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد)، جـ ٨، ص ١٢٢.

ذلك[1]. وظل ابن نصير المرجع الأول للمذهب النصيري إلى أن هلك عام ٢٦٠هـ[2].

ثم تولى المذهب بعد ابن نصير، أبو محمد عبد الله بن محمد الحنّان الجنبلاني، الذي عاش في القرن الثالث الهجري في جُنْبلا بإيران، وكان عالم المذهب ورئيس النصيرية وداعيتهم، وله طريقة صوفية بين النصيرية تعرف باسمه هي «الطريقة الجُنْبلانيّة»، ثم رحل الجنبلاني إلى مصر فتبعه جماعة من بينهم الحسين بن حمدان الخصيبي (٢٦٠ ــ ٣٤٦هـ). وبعد وفاة الجنبلاني سنة ٢٨٧هـ، أصبح الخصيبي المرجع الأعلى للمذهب النصيري، وقد اتخذ مقره في بغداد، ثم أخذ يتنقل بين الأتباع وأخيراً استقر به المقام في مدينة حلب بسوريا. ويعتبر الخصيبي المؤسس الحقيقي للفكر النصيري، وأشهر من صنف في عقائدهم. وبعد وفاة الخصيبي أصبح للنصيرية مركزان: الأول والأعظم في حلب ويرأسه الشيخ (محمد بن علي الجلي) الذي خلف الخصيبي، والثاني في بغداد ويرأسه الشيخ (علي بن الجسري)، ثم انتقل مركز ثقلهم إلى جهات اللاذقية والجبال المسماة الآن باسمهم[3].

ولعل أقدم مصدر يشير إلى النصيرية كفرقة كتاب الملل والنحل، للشهرستاني (٤٧٩ ــ ٥٤٨هـ)، ولكن وردت إشارة عند كل من القُمِّي[4]، والأشعري[5]،

(١) المقالات والفرق (سعد القمي)، ص ١٠٠، ويقال إن أبي محمد الحسن العسكري تبرأ من ابن نصير وأمثاله من غلاة الشيعة، وأنه كتب إلى أحد مواليه قائلاً: إني أبرأ إلى الله من إبن نصير الفهري وابن بابا القمي، فأبرأ منهما وإني محذرك وجميع موالي ومخبرك أني ألعنهم ــ عليهما لعنة الله ــ فتّانين مؤذين أذاهما الله وأرسلهما في اللعنة وأركسهما في الفتنة..». انظر: الشيعة في التاريخ (الشيخ حسين الزين) دار الآثار للطباعة والنشر، بيروت، ط. أولى (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)، ص ٢٢٥.

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب)، ص ٢٧٢.

(٣) المرجع نفسه، (مصطفى غالب)، ص ٢٧٢. أنظر «كتاب مجموع الأعياد والطريقة الخصيبية» لأبي سعيد ميمون بن قاسم الطبراني (٣٥٨ ــ ٤٢٦هـ) (عبدالحميد الدجيلي)، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٤، جـ١ (١٣٧٥/ ١٩٥٦) ص ٦١٨ ــ ٦٢٩.

(٤) المقالات والفرق (سعد القمي) ص ١٠٠ / ١٠١.

(٥) مقالات الإسلاميين، ص ١٥.

والبغدادي[1] إلى ما أسموه بالنميرية من الرافضة ونسبوا إليهم دعوى أن الله حَلَّ في زعيمهم النميري. والنميرية وفقاً لرواية الأشعري والبغدادي يتبعون في الأصل جماعة الشريعية، اتباع رجل يعرف بالشريعي، وزعم الشريعية أن الله حل في خمسة أشخاص: في النبي وعلي والحسن والحسين وفاطمة، وأن هؤلاء آلهة عندهم، وأن لهذه الآلهة أضداداً خمسة، وانتهى الشريعي بدعواه حلول الله فيه. فإذا علمنا أن دعوى حلول الله في الأشخاص تمثل جوهر المذهب النصيري، وفمن المحتمل أن تكون النميرية المشار إليها هي النصيرية، وأن الطائفة كانت تعرف بهذا الاسم ثم عرفت باسم النصيرية، وكلاهما من نسب محمد بن نصير النميري كما ذُكِرَ من قبل.

عقائد النصيرية :

النصيرية من الفرق الباطنية التي تحرص دائماً على أن تكون معتقداتها وطقوسها في دائرة الكتمان. ولكن لحسن الحظ قد حفظ لنا كل من الشهرستاني[2] وابن تيمية[3] جانباً هاماً من عقائد هذه الطائفة وتاريخها. وتتمثل عقائد النصيرية في جملتها وتدور حول القول بالوهية على وان الله تعالى حل فيه، وقولهم بالتقمص أو التناسخ وانكارهم من ثم للبعث وما يتبعه من ثواب أو عقاب بعد الحساب.

اعتقادهم في ألوهية علي وحلول الله فيه:ـــ يعتقد النصيرية بأن الله يحل في الأشخاص، وأن آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب، ومن ثم فهم يعتقدون أنه إله ويدينون له بالعبودية من دون الله تعالى. وقد دافع النصيرية عن فكرة الحلول هذه وإمكانية تحققها بأن قالوا: «إن ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لا ينكره عاقل. أما في جانب الخير فكظهور جبريل عليه السلام ببعض الأشخاص، والتصور بصورة أعرابي، والتمثل بصورة البشر، وأما في جانب الشر فكظهور الشيطان بصورة الإنسان حتى يعمل الشر بصورته، وظهور الجن بصورة البشر حتى يتكلم بلسانه، فلذلك نقول إن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص[4]». والمقارنة بين

(١) الفرق بين الفرق، ص ٢٥٢.
(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) جـ ١، ص ١٨٨ ـــ ١٨٩.
(٣) مجموع الفتاوي (ابن تيمية) مجلد ٣٥، ص ١٤٥ ـــ ١٦٠.
(٤) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٨٨.

الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة والجن والشياطين مقارنة غير صحيحة وقياسه تعالى إليها قياس فاسد، لأن هذه جميعها مخلوقات له سبحانه، منحها خصائص معينة من بينها قدرتها على التشكل في الصور، أما الله سبحانه وتعالى فمنزه عن المشابهة والمشاكلة لسائر المخلوقات، متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[١].

ويذهب النصيرية إلى أن هذا التجلي أو الحلول قد حدث في سلسلة من الأشخاص، تبتدىء بشيث وتنتهي بعلي بن أبي طالب، ويطلقون على الشخص الذي تجلى الله تعالى فيه «المعنى»، وعلى واسطة هذا التجلي «الاسم»، وهكذا فالإسم عندهم في أول الناس آدم والمعنى شيث، والاسم يعقوب والمعنى هو يوسف ويستدلون على هذا، كما يزعمون، بما ورد في القرآن العظيم حكاية عن يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام فيقولون: أما يعقوب فإنه كان «الاسم» فما قدر أن يتعدى منزلته فقال: (سوف أستغفر لكم ربي) ، وأما يوسف فكان «المعنى» المطلوب فقال: (لا تثريب عليكم اليوم) ، فلم يعلق الأمر بغيره لأنه علم أنه هو الإمام المتصرف. ويجعلون موسى هو الاسم ويوشع هو المعنى، ويقولون: يوشع ردت له الشمس لمَاً أمرها فأطاعت أمره، وهل ترد الشمس إلا لربها!! ويجعلون سليمان هو الاسم، والمعنى آصف (الرجل المؤمن الذي أحضر لسليمان عليه السلام عرش بلقيس، ولم يذكر في القرآن اسمه)[٢]، ويقولون سليمان عجز عن إحضار عرش بلقيس بينما قدر عليه آصف، لأن سليمان كان الصورة وآصف كان المعنى القادر والمقتدر.. ويعدون الأنبياء والمرسلين واحداً واحداًعلى هذا النمط إلى زمن الرسول ﷺ، فيقولون محمد هو الاسم، وعلي هو المعنى، ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا[٣].

ويبرر النصيرية دعواهم بحلول الله تعالى في عَليٍّ والأئمة من بعده بأنهم أفضل الخلق بعد الرسول عليه الصلاة والسلام، فلما لم يكن بعد الرسول ﷺ شخص أفضل من علي وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية، فظهر الحق بصورتهم،

---

(١) سورة الشورى، الآية ١١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير، جـ ٣، ص ٣٦٤.

(٣) مجموع الفتاوى (ابن تيمية) مجلد ٣٥، ص ١٤٦.

ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم، فعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم. ولكن إذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل من عَليٍّ، كما يعترف النصيرية، فلماذا لم يظهر الله تعالى في صورة من هو أفضل وهو محمد ﷺ؟.

والذي يبدو من النصوص الأخرى للنصيرية، أنهم يفضلون علياً على النبي عليه الصلاة والسلام، ويجعلونه في درجة أعلى منه، وفي هذا يستشهدون ببعض النصوص التي أوردها الشيعة في فضل علي، ويفسرونها تفسيراً باطنياً لتتفق مع عقيدتهم العامة في تأليه علي.

ومما أوردوه في هذا المجال أن علياً كان مخصوصاً بتأييد إلٰهي من عند الله تعالى فيما يتعلق بباطن الأسرار. أما النبي فلم يكن له سوى الحكم بالظاهر وأوردوا في هذا نصاً زعموا أنه حديث عن رسول الله ﷺ يقول فيه «أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السراير»*. وبنوا على ذلك ما اعتبروه حجة لهم من أن النبي ﷺ كان يقاتل المشركين الذين كفرهم ظاهر، أما علي فقد كان يقاتل المنافقين الذي يبطنون الكفر، وعقد النصيرية مشابهة بين علي وعيسى عليه السلام، الذي زعمت النصارى أن الله حَلَّ فيه، ولكن يبدو أنهم خشوا من أن يرموا بالكفر كما كُفِّرَت النصارى بدعواها هذه، ومن ثم أورد النصيرية نصاً مكذوباً نسبوه للرسول ﷺ يقول فيه لعلي: لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى بن مريم عليه السلام، لقلت فيك مقالا. وزعموا أن هذا النص يتضمن مشابهة بين علي وعيسى عليه السلام. كما زعمت النصيرية أيضاً أن علياً كان عالماً بالتأويل، ومشاركاً من ثَمَّ للرسول ﷺ في رسالته، وأوردوا في هذا حديثاً مكذوباً أيضاً يقول: «فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله وهو خاصف النعل»، وأضاف النصيرية إلى ذلك مكالمة علي للجن وقلعه باب خيبر، كأدلة على أن في عَليٍّ جزءاً إلٰهياً وقوة ربانية ويكون هو الذي ظهر الإلٰه بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه[1]».

وهكذا يذهب النصيرية إلى أن «علياً» حل فيه جزء من الله تعالى، وكان الحكمة من ظهور الإلٰه في الجسم الإنساني، على رأيهم، هي أن يؤنس خلقه

(*) حديث أمرت أن أحكم بالظاهر... إلخ، لا يعرف. قال السيوطي: هذا من كلام الشافعي في الرسالة... انظر: الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة، ص ٧٠.

(١) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٨٨ — ١٨٩.

وعبيده ليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه. ويذهب النصيرية أبعد من هذا، فيزعمون أن علياً كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض، وينسبون إلى علي قوله «كنا أظلةً عن يمين العرش فسبحنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا»، وتلك الظلال وتلك الصور التي تنبيء عن الظلال هي حقيقة، وهي مشرقة بنور الرب تعالى إشراقاً لا ينفصل عنها سواءً كانت في هذا العالم أو في ذلك العالم وعن هذا قال علي رضي الله عنه «أنا من أحمد كالضوء من الضوء» يعني لا فرق بين النورين إلا أن أحدهما سابق والثاني لاحق به تال له، قالوا: وهذا يدل على نوع من الشركة[1]. ويتضح من هذه الأقوال أن النصيرية وجدوا فيما كتبه الشيعة عن فضائل علي، وما وضعوه من أحاديث وما اختلقوا من أحداث مصدراً ثَرّاً بنوا عليه آراءهم المنحرفة واعتقاداتهم الضالة: من القول بألوهية علي وحلول الله فيه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ويبدو أنه قد حدث تطور في عقائد النصيرية نتيجة لاتصالهم ببعض المذاهب، واطلاعهم على بعض الفلسفات القديمة، ومن ثم جاءت آراؤهم في صورتها الأخيرة خليطاً من المعتقدات النصرانية، والمجوسية، والسبئية ونظريات الفلسفة اليونانية، وبعض معتقدات الشيعة ومذاهبهم. فبالإضافة إلى قولهم بحلول الله تعالى في الأجسام وأنه تعالى حلَّ في علي ومن ثم ينبغي عبادته، وأنه الإمام في الظاهر والباطن، ذهب النصيرية إلى القول بما يشبه عقيدة التثليث عند النصارى. إذا أنهم ألفوا ثالوثاً يتكون من علي، ومحمد، وسلمان الفارسي، واتخذوا من ذلك شعاراً يتكون من الحروف الثلاثة (ع.م.س) وسموه (سر عقد ع.م.س) وهو يرمز إلى المعنى، والاسم، والباب. فعلي المعني أو الغيب المطلق (أي الله)، ومحمد الإسم أو صورة الاسم الظاهر، وسلمان هو الباب أو الطريق الذي يوصل إلى المعنى[2]. ولسلمان الفارسي منزلة خاصة عند النصيرية، كما له منزلة خاصة عند الشيعة، إذ ينزلونه منزلة الملك جبريل، ويذهبون إلى أنه هو الذي حمل

---

(١) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٨٩، قارن هذا بما هذا بما أورده ابن تيمية عن الشيعة وزعمهم أن علياً كان نوراً قبل خلق الكائنات، منهاج السنَّة النبوية، جـ ٣، ص ١٠، وانظر أيضاً ص ١٣٨ ــ ١٣٩ من هذا الكتاب.

(٢) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٨٨، إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة)، ط (أ) ص ٢٢٦.

القرآن كله إلى محمد ﷺ. ويذهب النصيرية إلى أن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي في زعمهم خلق محمداً، ومحمد خلق سلمان الفارسي، وسلمان الفارسي خلق من أسموهم الأيتام الخمسة ويقصدون بهم: المقداد بن الأسود وأبا ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون، وعبدالله بن رواحة، وقنبر بن كادان مولى علي!!!. وصوروا هؤلاء في صورة الملائكة أو الكواكب، وأوكلوا إليهم مسئوليات معيّنة في تصريف الكون، فالمقداد موكول إليه الرعد والصواعق والزلازل، وأبو ذر موكل بالرياح وقبض أرواح البشر، وعثمان بن مظعون موكل بالمعدة وحرارة الجسم وأمراض الإنسان، وقنبر بن كادان موكل بنفخ الأرواح في الأجسام(١). وذهب النصيرية إلى أن هؤلاء الأيتام الخمسة، ومعهم النقباء الإثنى عشر (أئمة الشيعة الإثنى عشرية)، يظهرون مع الرب والحجاب في كل كور ودَوْر أبداً سرمداً على الدوام والاستمرار(٢).

وتصور النصيرية للثالوث (ع. م. س) ربما يكون مستمداً من النصرانية، أو بعض الأصول الوثنية السورية القديمة التي تجعل من الشمس والقمر والسماء ثالوثاً يعبدونه، وقد وردت إشارات إلى هذا الثالوث الوثني عند بعض شعراء النصيرية(٣). وقد تأثر النصيرية أيضاً ببعض الفلسفات والمذاهب الهندية في التناسخ، فقالوا بالتقمص (التناسخ)، وذهبوا إلى أن البشر كانوا كواكب ألقت بهم الخطيئة إلى الأرض فينبغي أن تنتقل أرواحهم من جسد إلى جسد آخر سبع مرات فإن كانت صالحة فإنها تذهب إلى الشمس أو الإله أو الكواكب، وإن كانت شريرة فإنها تدخل في جسم امرأة أو تحل في الحيوانات النجسة كالخنازير والقردة، أو تحل في جسد إنسان سيء، وبعد أن تتخلص من الشرور تعود للدخول في الأجسام البشرية المتألمة أو في أجساد الخيّرين، ثم تعود إلى مكانهافي السماءبعد أن تكون قد انصقلت(٤). وفي نص آخر، يذهب النصيرية إلى أن المؤمن عندهم يتحول سبع مرات قبل أن يأخذ مكانه بين النجوم، فإن الإنسان إذا مات شريراً

---

(١) الباكورة السليمانية ص: ٢٩ / ٣٠.

(٢) مجموع الفتاوى (ابن تيمية)، مجلد ٣٥، ص ١٤٧.

(٣) الجذور التاريخية للنصيرية، ص ١٠٧، نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية، مادة (النصيري) ماسنيون.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

وُلِدَ من جديد نصرانياً أو مسلماً حتى يتطهر ويُكفّر عن سيّئاته، أما الذين لا يعبدون علياً فيولدون من جديد على شكل كلاب أو إبل أو بغال أو حمير أو أغنام[1]. وتبعاً لهذا التصور فقد أنكر النصيرية البعث والحساب، وذهبوا إلى أن الجنة والنار تكونان في هذه الحياة الدنيا فحسب[2]. وأخيراً فإن النصيرية يشتركون مع غلاة الشيعة عامة في سب الصحابة ولعنهم، ويمدون هذا السباب وهذه اللعنات لتشمل بعض الصوفية وعلماء المذاهب الفقهية وكل من خالفهم في مذهبهم، لأن هؤلاء في زعمهم يأكلون من خيرات علي ويعبدون غيره[3]!!!. ويمجد النصيرية ابن ملجم قاتل علي ويقولون أنه خلص بقتله علياً اللاهوت من الناسوت[4].

موقف النصيرية من الشريعة :

ينهج النصيرية نهجاً باطنياً يتمثل في تأويل شعائر الشريعة وأحكامها تأويلاً باطنياً يخرجها عن مفهومها الشرعي، وينتهي إلى التحلل منها وعدم القيام بواجباتها، وهم في هذا يتفقون مع التيار الباطني العام[5]، الذي يهدف إلى إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، والتظاهر بأن لألفاظ الشرع حقائق يعرفونها هم وحدهم دون غيرهم. وقد طبق النصيرية هذا المنهج التأويلي الباطني على كل شعائر الإسلام، من صلاة وصوم وزكاة وحج إلخ..

فالصلاة مثلاً لهم فيها عدة آراء تقود جميعها إلى إبطالها أو أدائها بصورة مختلفة عن الصورة التي أتت بها الشريعة. فيذهب بعضهم مثلاً إلى القول بأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء وهي: علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة. وأن ذكر هذه الأسماء الخمسة في رأيهم، يجزيهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلاة وواجباتها. ويجعل بعضهم كل فرض من فروض الصلاة لواحد من بيت النبوة، ويربطون بين عدد ركعات الفريضة وعدد حروف اسم من تؤدي له

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٨٩.

(٢) مجموع الفتاوي (ابن تيمية) مجلد ٣٥، ص ١٤٥.

(٣) الباكورة السليمانية، ص: ٤٤ / ٤٥، الجذور التاريخية للنصيرية، ص ١٢٥ — ١٢٦، إسلام بلا مذاهب ط (أ)، ص ٢٢٧ / ٢٢٨.

(٤) اللاهوت: الالوهية، والناسوت: الطبيعة البشرية.

(٥) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب)، ص ٢٨٥.

الصلاة: فيقولون الظهر أربع ركعات وتصلى باسم «محمد» والعصر أربع ركعات وتصلى باسم «فاطم» أي «فاطمة»، والمغرب ثلاث ركعات وتصلى باسم «الحسن»، والعشاء أربع ركعات وتصلى باسم «الحسين»، وأما الصبح فركعتان، وبعضهم يجعلها لعلي، والبعض الآخر يصليها باسم «محسن» (السر الخفي)، وقد جعلت له الصلاة ركعتين لأنه سَقْط (أي جنين غير مكتمل). ويزعم الذين يأخذون بهذه العقيدة أنَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد ضرب فاطمة على ظهرها فأجهضت به[1]. وهذه لا شك فرية لا أساس لها من الصحة ولا سند لها من التاريخ. ويفسر بعض النصيرية الصلاة بأنها عبارة عن معرفة أسرارهم، ومن يؤديها منهم فإنه يؤديها من غير طهارة ومن غير سجود ولا ركوع في غالب الأحيان، كما أنهم لا يشترطون الاتجاه إلى القبلة في صلاة الجماعة باستثناء الإمام وحده، ولا يصلون الجمعة ولا يقولون بأنها فريضة، ويهتمون بصلاة العيدين لكنهم لا يستقبلون القبلة فيها أيضاً. ويؤدون صلواتهم جميعها في البيوت، وليست لهم مساجد يحرصون على الصلاة فيها. وقد قامت محاولات وبذلت جهود من قبل كل من صلاح الدين الأيوبي، والظاهر بيبرس، ومدحت باشا، وإبراهيم باشا العثمانِيَّيْن، لإصلاح النصيرية وردهم عن غيهم، فبنيت لهم المساجد والمدارس وشُجِّعُوا على التعليم وإقامة الصلوات في المساجد، وكان النصيريون يلتزمون بهذا لفترة يعودون بعدها إلى ما كانوا عليه فيخربون المساجد ويجعلونها حظائر لمواشيهم، وقد حكى ابن بطوطة ذلك عنهم فقال: «إنهم يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون و لا يصومون، وكان الملك الظاهر بيبرس، ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا في كل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه، وربما تأوى إليه مواشيهم ودوابهم، وربما وصل الغريب إليهم، فينزل بالمسجد، فيُؤذن للصلاة، فيقولون: «لا تنهق علفك يأتيك»[2].

أما الزكاة فإن النصيرية يفسرونها تفسيراً باطنياً يخرجها عن معناها المعروف لدى المسلمين ولكنهم يقومون بدفع الخمس من ممتلكاتهم من عروض التجارة

(١) الباكورة السليمانية، ص: ١٢ إسلام بلا بلا مذاهب ط. (أ) ص ٢٣٣ / ٢٣٤.

(٢) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى (القاهرة ١٩٣٩)، جـ ١، ص ٦٥.

والمواشي والمحاصيل الزراعية وحتى مهور بناتهم إلى مشايخهم. وربما كانت هذه المكاسب المادية من بين الاسباب التي جعلت المشايخ حريصين على ان يظل عوام النصيرية في هذا الاطار المتداعى من المعتقدات الخرافية حتى يمكنهم استغلالهم[1].

أما الصوم فهو مختلفون فيه أيضاً فيفسره بعضهم بأنه كتمان أسرارهم، وأنه عبارة عن ذكر اسم ثلاثين رجلاً واسم ثلاثين امرأة معروفة لديهم[2]. ومن يَصُمْ من النصيرية فإنه يخالف المسلمين في أداء هذه الفريضة، إذ يصوم بعضهم قبل صلاة الفجر ويفطر قبل غروب الشمس. ويضيف إليه بعضهم البعد عن معاشرة النساء طوال الشهر، ويقولون إن كل ساعة صوم لملك من الملائكة المقربين المذكورين في القرآن. وهناك فريق منهم يفسر الصوم على أنه صون، أي امتناع عن النساء طوال شهر رمضان، وليس امتناعاً عن الطعام والشراب وما شاكلهما[3].

وأما الحج عندهم فهو كفر وعبادة أصنام ومن ثم لا يقومون به. والجهاد عبارة عن صب اللعنات على الخصوم وفشاة الأسرار، والولاية والإخلاص للأسرة العلوية وكراهية خصومها. والشهادة هي أن تشير إلى صيغة (ع.م.س)، والقرآن عبارة عن مدخل لتعلم الإخلاص لعلي. ويعتقدون بأن سلمان، (تحت اسم جبريل)، قد قام بتعليم محمد ﷺ القرآن[4]. وللنصيرية الآن بدلا من القرآن كتاب يسمونه (المجموع) مكون من ست عشرة سورة تدور كلها حول تأليه علي بن أبي طالب. ومما جاء في إحدى سوره وهي السورة التاسعة واسمها «العين العلوية» «بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الأنزعية، بسر الميم المحمدية الهاشمية الملكوتية الحجابية القرصية النورانية، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية النصيرية، بسر ع.م.س.»[5]. ويذهب النصيرية إلى استحلال الخمر وتقديسها وتعظيمها ويرون أنها من النور، وتبعاً لذلك يعظمون شجرة العنب «الكرم» التي هي أصل الخمر ويستعظمون قلعها[6].

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط (أ)، ص ٢٣٤.

(٢) مجموع الفتاوى (ابن تيمية)، مجلد ٣٥، ص ١٤٥.

(٣) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط (أ)، ص ٢٣٤.

(٤) Encyclopedia of Islam (s), art. Nusairi, P. 455.

(٥) الجذور التاريخية للنصيرية، ص ١٦٥.

(٦) صبح الأعشى (القلقشندي)، جـ ١٣، ص ٢٥٠.

وأعياد النصيرية كعقائدهم، خليط من أعياد النصارى والشيعة والمجوس والمسلمين. فهم يحتفلون بعيد الفطر والأضحى، ولكن عيد الفطر عندهم لا يأتي بعد رمضان بل بعد الصوم الذي يعتقدونه ويؤدونه بطريقتهم. وكذلك عيد الأضحى يحتفلون به في الثاني عشر من ذي الحجة بدلاً من العاشر. ولهم أعياد تدل على ارتباطهم بالشيعة كعيد الفراش، وهو ذكرى مبيت علي في فراش الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة. وعيد عاشوراء في العاشر من محرم ذكرى مقتل الحسين بن علي بكربلاء. والنصيرية يعتقدون أن الحسين لم يمت بل اختفى مثل عيسى بن مريم. ويحتفلون في الخامس عشر من شعبان بذكري وفاة سلمان الفارسي. وبعيد الغدير الثاني في التاسع من ربيع الأول. ومن أعيادهم الفارسية عيد النوروز في أول الربيع، وعيد المهرجان في أول الخريف، كما يشاركون النصارى في الاحتفال بعيد الميلاد وعيد الغطاس، والعنصرة والبربارا(١).

ودعوة النصيرية دعوة سرية خاصة مقصورة على النصيريين، ولا يسمحون لغير النصيري أن يدخل فيها إلا بشروط قاسية واختبارات شديدة، وحتى النصيري لا يباح له سر الدعوة إلا بعد أن يبلغ الثامنة عشر أو العشرين من العمر(٢). ولهم طقوس خاصة يمر فيها الشخص بمراحل عديدة ويخضع لضغوط نفسية وحالة من الإرهاب والتخويف، وعندها تملي عليه العقيدة ويؤخذ عليه العهد والمواثيق بكتمان سرها ومن يبح بهذا السر يكون مصيره القتل(٣). ويشترطون أن يمر من يريد الدخول في الدعوة النصيرية من الرجال بمراحل ثلاث.. المرحلة الأولى يسمونها مرحلة الجُهَّال... وفي هذه الدرجة أو المرحلة يهيئون من يقع عليه الإختيار من أبناء الطائفة لقبول وحمل أسرار المذهب، التي يعطونه أو يلقنونه شيئاً منها في مرحلة تالية تسمى مرحلة أو درجة (التعليق). إذ يبقى (الجاهل) مدة سنة إلى سنتين تحت إشراف شيخ من شيوخ الطائفة ليطلعه على شيء من أسرار

---

(١) مجموع الأعياد والطريقة الخصيبية (عبد الحميد الدجيلي)، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٤، جـ ١، ص ٦٢٥ ــ ٦٢٩. مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٥٨ / ٤٦٢.

(٢) الباكورة السليمانية، ص: ٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ١ ــ ٧.

العقيدة بالتدريج. فإن لم يأنسوا في «الجاهل» خيراً طردوه ولا يلقنونه أسرار المذهب.. أما إذا وجدوه جديراً بحمل أسرار المذهب نقلوه إلى درجة أو مرحلة أعلى يسمونها مرحلة (السماع).. وبعد مضي فترة عليه في هذه الدرجة التي يطلع فيها على كثير من أصول المذهب النصيري.. يعقد الرؤساء الروحيون للطائفة مجمعاً خاصاً لتلقينه أسرار المذهب ولنقله إلى درجة أعلى يطلقون عليها (درجة الشيخ أو صاحب العهد) بحضور كفيلين أو شاهدين اثنين يشهدان باستعداد الرجل لقبول السر ومحافظته عليه وبأنه أهل للقيام بأعباء هذه الدرجة.. ثم يلقنونه سر المذهب بعد حلف اليمين المقررة عندهم، والذي يتضمن عدم البوح بهذا السر، ويؤكد على ضرورة الحفاظ عليه ولو أريق دمه[1]. والنصيرية لا يبيحون بسر دعوتهم للنساء، وهذا يكشف عن حقيقة نظرتهم للمرأة وتحقيرهم لها، إذ أنهم يعتقدون أن النساء ليست لهن أرواح خاصة، ومن ثم يجعلون المرأة جزءاً من الضيافة المقدمة عند الدخول في المذهب. كما يَحْرِمون المرأة من حقوقها الدينية، ويحرمونها من الميراث عند وجود الإخوة الذكور، والميراث كله عندهم غير واجب وغير ملزم. وقد تعطى المرأة في بعض الأحيان شيئاً من تركة أبيها على سبيل المساعدة[2].

النصيرية خلال التاريخ :

موطن النصيرية الآن في سوريا ولبنان، ويبدو أنهم جاءوا إلى هذه المنطقة في فترات سابقة في شكل هجرات جماعية من العراق فراراً من الاضطهاد الذي وقع عليهم بسبب آرائهم المنحرفة فاتخذوا من جبال الشام ساتراً لهم. ويمثل النصيرية الآن حوالي ١٠٪ من سكان سوريا ونسبة كبيرة منهم تقطن في ريف محافظة اللاذقية بينما تنتشر أقليات منهم في دمشق وحمص وحلب كما توجد اعداد كبيرة منهم في تلك المناطق الواقعة جنوب تركيا كالاسكندرونة وانطاكيا وما حولهما من بلاد الترك كما توجد جماعات منهم في منطقة «عكار» بلبنان.

وتاريخ النصيريين، منذ أن وجدوا في هذه المنطقة، تاريخ أسود مشبوه، إذ أنهم لم يخرجوا على العقائد الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب، بل إنهم كانوا

(١) طائفة النصيرية (د. سليمان الحلبي)، ص ٤٥ / ٤٦.
(٢) إسلام بلا مذاهب، ط. (أ)، ص ٢٣٦.

دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً. والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام، فقد استظهروا بالصليبيين ضد المسلمين، ودخل بعضهم في صفوفهم وخدمتهم، وبسبب عمالتهم وخيانتهم استولى الصليبيون على سواحل الشام والقدس وغيرها من بلاد الشام[١]. كما أنهم تعاونوا مع التتار، وحثوا تيمور لنك على قتل المسلمين بالجملة، وتخريب دمشق، وأقاموا الأفراح حينما ذبح التتار المسلمين. وفي التاريخ القريب حينما احتل الفرنسيون سوريا عام ١٩٢٠م تقرب إليهم النصيريون وتعاونوا معهم وكوفئوا على ذلك بأن جعل الفرنسيون لهم دولة سموها «دولة العلويين»[٢]، حينما قسموا سوريا إلى دويلات صغيرة، وجعلوا لدولة العلويين تلك مجلساً خاصاً وظلوا ككيان منفصل حتى توقيع المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦م، التي نصت على وحدة البلاد. وبعد توقيع المعاهدة كانت هناك ردود فعل مختلفة من النصيريين إذا أن بعضهم قبل الوحدة وأكد انتماءه إلى الإسلام والوحدة وطالبت جماعات منهم بالانفصال واستمرار الدولة العلوية[٣].

وإذا كانت هذه هي عقائد النصيريين أو العلويين، كما يفضلون أن يسموا أنفسهم، وإذا كان هذا هو تاريخهم، فلا غرابة أن يصفهم ابن تيمية في فتواه المشهورة عنهم، بأن ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض، وأنهم في الواقع لا يؤمنون بنبي من الأنبياء والمرسلين ولا بكتاب من كتب الله المنزلة، ولا يُقرُّون أن للعالم خالقاً، ومن ثم فإن حكمهم حكم الكفار بل هم أكفر من اليهود والنصارى، والمشركين ولا تجوز مناكحتهم ولا يجوز أن يُنْكح الرجل مولاته منهم ولا يتزوج منهم امرأة ولا تباح ذبائحهم ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين ولا يُصَلَّي على من مات منهم[٤]. وتسري هذه الفتوى على كل من يعتقد عقائد

---

(١) مجموع الفتاوي (ابن تيمية)، مجلد ٣٥، ص ١٥٠ /١٥١.

(٢) اسم العلويين هذا أطلقه الفرنسيون على النصيرية ليبعدوا عنهم نسبة النصيرية وما اتصفت به هذه الطائفة من صفات ذميمة وتاريخ أسود.

(٣) الجذور التاريخية للنصيرية، ص ١٣٠، هامش (١).

(٤) مجموع الفتاوي (ابن تيمية) مجلد ٣٥، ص ٤٩/ ١٦٠، وقد علق عبدالرحمن بدوي على فتوى ابن تيمية هذه بأنها عامة تشمل النصيرية والإسماعيلية وزعم أن هذا خلط من

هذه الفرقة الضالة ويتبع مذهبها، وإلى أن يكتشف أمر هذه الطائفة الباطنية التي تكتم تعاليمها ومعتقداتها وتظهر غير ما تضمر[1].

النصيرية والشيعة الامامية:

قد حاول بعض النصيرية المعاصرين رفض ما نسبه كُتَّاب الفرق والمؤرخون إلى هذه الطائفة من عقائد وأفكار، محاولين اثبات أن النصيرية هم من الشيعة الإثنى عشرية وانهم لا يختلفون عنهم في شيء. وادعى هؤلاء أن ظروف الاضطهاد التي عاشها أفراد الطائفة وما قاسوه من ظلم خلال العصور ومن جماعات مختلفة، جعلهم ينعزلون عن بقية المجتمع الإسلامي. وفي هذه الاجواء المغلقة القاسية نمت أفكارهم الغالية وتفشت بينهم أنواع من الجهل والغلو، وقد ساعد على تكوين هذه الحالة جهل بعض المشايخ وتعمدهم الحفاظ على تلك الحالة المزرية من التخلف والجهل لدى أفراد الطائفة[2].

وبعد أن انزاح عن كاهلهم كابوس الاضطهاد والظلم، حاول مثقفو الطائفة تخليص أفرادها من أسر الجهل، وسعوا إلى تبصيرهم بالحق عن طريق نشر العلم

= ابن تيمية وأنه لم يكن على علم دقيق بمذهبهم وقال: نكاد نجزم بأنه لم يدر شيئاً دقيقاً عن معتقدات النصيرية. وهذا غريب من ابن تيمية لأنه عاش في منطقة مجاورة لبلاد النصيرية وكان في وسعه الحصول على كتب النصيرية أو على الأقل الاستخبار عن عقائدهم ــ انظر مذاهب الإسلاميين، جـ ٢، ص ٤٤٤، وقد أخطأ بدوي في ملاحظته وما بناه عليها من نتائج، إذ أن ابن تيمية كان على معرفة على الأقل بما ورد في سؤال سائله من حقائق تتصل بمعتقدات النصيرية كما أن فتواه ورد فيها ما يبين معرفته الدقيقة بأهداف هذه الطائفة، أما ذكره طوائف أخرى كالقرامطة والإسماعيلية وربطها بالنصيرية فليس هذا خلطاً من ابن تيمية كما يظن بدوي، بل هو تأكيد من ابن تيمية أن هذه الفرق جميعها تلتقي في وجهتها الباطنية ومن ثم فهي تمثل أصول الباطنية وتسعى إلى تحقيق غاياتها.

(١) قد كتب أحد النصيريين وهو سليمان أفندي الأذني كتاباً عن النصيرية بعنوان «الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية»، طبع في بيروت عام ١٨٦٤. وقد ألفه بعد أن ارتد عن مذهبه إلى النصرانية وأصدر كتابه هذا يكشف فيه أسرار العقيدة النصيرية المخبأة فنقم عليه النصيريون وخنقوه في بيته، انظر الجذور التاريخية، ص ٥٣ / ٥٤.

(٢) أنظر تاريخ العلويين (أمين الطويل)، المقدمة عبد الرحمن الخير، ص: ١١ ــ ١٣.

بينهم، وإعلان البراءة من كل ما يخالف العقيدة الإسلامية. وقد عبر اكثر من واحد من النصيرية المعاصرين عن اتفاق الطائفة مع الشيعة الإمامية في العقائد، فيقول أحدهم: «فما العلوي إلا كل إمامى منتسب بولائه للإمام على عليه السلام»(١)، وإن عقيدة العلوى تتمثل في: التوحيد المحض وتنزيه الخالق عن كل مشابهة للمخلوق، والاقرار بنبوة سيد الرسل محمد ﷺ، والاعتقاد بالمعاد، والعمل بدعائم الإسلام الخمس والاعتقاد بالامامة»(٢). كما أكدوا أيضاً التزامهم بالإسلام آدابه واحكامه، ويقول أحد العلويين: «حاشا لله أن يكون ذلك العلوى، كما يعلمه احفاده من طريق مخلفاته الفقهية وتقاليده الموروثة ممن يدين بغير توحيد الله، أو يستن بغير سنة رسول الله، أو يولى وجهه في صلاته لغير بيت الله، أو يأخذ أحكامه وفرائضه وحلاله وحرامه من غير القرآن كتاب الله»(٣). بل إن العلويين عقدوا المؤتمرات وأصدروا بعض البيانات مؤكدين فيها هذا الموقف للعلويين. ففي سنة ١٩٣٦م نشر علماء الطائفة قراراً من بندين: الأول قرروا فيه أن كل علوي فهو مسلم، يقول ويعتقد بالشهادتين، ويقيم أركان الإسلام الخمسة. والبند الثاني: كل علوي لا يعترف باسلاميته أو ينكر أن القرآن كتابه وإن محمداً ﷺ نبيه، لا يعد في نظر الشرع علوياً، ولا يصح انتسابه للمسلمين العلويين، وقرروا كذلك إن العلويين شيعة مسلمون، وقد برهنوا طوال تاريخهم عن امتناعهم من قبول كل دعوة من شأنها تحوير عقيدتهم»(٤). وفي عام ١٩٧٢، عقدوا مؤتمراً في اللاذقية، عرفوا فيه الإسلام والإيمان والدين بما عرفها به المسلمون، وأكدوا إن أصول الدين عندهم هي: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، وعرفو الإمامة بما عرفها به الشيعة الإمامية من انها منصب الهي، تقتضيه الحكمة الإلهية لمصلحة الناس في مؤازرة الانبياء بنشر الدعوة وفي القيام بعدهم على تطبيق الأحكام بين الناس، ويصون الشريعة من التغيير والتحريف والتفسيرات الخاطئة التي يسببها اختلاف آراء الناس واجتهاداتهم في النظر إلى مصالحهم الشخصية كما يسببها تفاوت درجاتهم في الإيمان بالرسالة والمعرفة بأحكامها. وأكدوا إيمانهم بفروع الدين،

(١) النبأ اليقين عن العلويين (محمود الصالح)، ص: ١٣٦، نقلاً عن: إسلام بلا مذاهب، ص ٣٦٣.
(٢) نفس المرجع، ص ٣٧٣.
(٣) النبأ اليقين، ص: ١٣٦، نقلاً عن إسلام بلا مذاهب (الشكعة)، ص: ٣٧٣.
(٤) أعمال السيد حسن بن السيد محمد الحسني الشيرازي، ص: ٣٠٦.

من صلاة وصوم وزكاة... الخ، وإنهم يوجبون العمل بها وفق احكام المذهب الجعفري. وقرروا أن أدلة الشرع عندهم هي: القرآن والسنة النبوية والاجماع والعقل. وختموا هذا البيان بقولهم «هذه هي معتقداتنا نحن المسلمين العلويين، من يتقول علينا غيرها. فإننا نعتبره اما مفتريا مغرضاً أو جاهلاً ظالماً »[(١)].

ولا شك أن هذه الصورة عن طائفة النصيرية «العلويين» تختلف تماماً عن صورتهم التاريخية، والقول بمصداقيتها يستلزم اعادة التفكير، ومراجعة تاريخ كل من الشيعة والنصيرية؛ ولكن هناك بعض الاسباب القوية التي تدعو إلى الشك فيما حاول به العلويون المعاصرون اثباته عن طائفتهم، عقائدها وتاريخها، ومن أهم هذه الاسباب ما يلي:

أولا إنَّ وجود محمد بن نصير كشخصية حقيقية، ووجود طائفة سميت باسمه وارتبطت في تاريخها وعقائدها به، لا سبيل إلى انكاره، بل إن مصادر العلويين تثبت هذا الأمر وتقرره. فأمين الطويل النصيري في تاريخه للعلويين، يؤكد وجود ابن نصير ونسبة النصيرية إليه، كما يؤكد أيضاً أن النصيرية غير الجعفرية وليسوا منهم. ويذهب إلى أن العلويين (النصيرية) بعد الائمة، اتخذو الباب مرجعاً لهم، ولكنهم لم يكونوا متحدين، لذلك انقسموا إلى ثلاثة أقسام أساسية وهي:

(١) العلويين الذين هم موضع هذا التاريخ فهؤلاء بقوا تابعين للباب أي للسيد ابي شعيب عمر البصري النميري.

(٢) الذين اتبعوا (أبا يعقوب اسحق النخعى) الملقب بالاحمر، وقد كان من أصحاب الحسن العسكرى، ثم ادعى إنه هو الباب فاتبعه بعض العلويين وهؤلاء هم الاسحاقية.

(٣) الذين لم يتبعوا الباب ولم يتبعوا اسحق الاحمر، بل بقوا على ما جاء في كتب جعفر الصادق، بدون أن يكون لهم رئيس ديني وكيلاً للباب، وقد سموهم الجعفرية. فالجعفرية اذن، هم الذين تمسكوا بفكر الامام جعفر الصادق، ولم يقولوا بالبابية بمفهومها النصيري، كما أنهم لم يتبعوا ابن نصير[(٢)].

ثانياً: إن مصادر الشيعة الامامية الإثنى عشرية تؤكد هذه الحقائق عن

---

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ص: ٣٩٦ ــ ٤١٠.

(٢) تاريخ العلويين (الطويل) ص: ٢٦١ ــ ٢٦٢.

النصيرية، وقد سبق أن رأينا أن سعد القمى الشيعي يعتبر النصيرية من غلاة الشيعة[١]، وكذلك ذهب النوبختى في كتابه «فرق الشيعة» إلى مثل هذا الرأى[٢]. كما أن الكشى يعد ابن نصير من الغلاة أيضاً، ويورد براءة الحسن العسكرى منه[٣] وفي الجملة لا يكاد يخلو كتاب من كتب الشيعة في العقائد أو الاخبار أو الرجال من الإشارة إلى ابن نصير وأفكاره الغالية المنحرفة، وفرقته الضالة المبتدعة. بل أن الشيعة المعاصرين يؤكدون هذا الامر، فنجد الكاتب الشيعى المعاصر، كامل مصطفى الشيبى، يعرض افكار الغلاة السابقين على ابن نصير، من القائلين بالحلول والتجسيد والتناسخ، والتأويل، واستمرار النبوة، وتأليه الائمة، ثم يقول «وبعد هذا كله ظهر النصيرية، ليضيفوا إلى هذه القائمة من الأفكار، تخصيص على بن أبي طالب بالتأويل، وتخصيص النبي بالتنزيل، واعتبار على والنبي كالضوء من الضوء، إلا أن احدهما اسبق والثاني لا حق له، ومن هنا وجدنا أنواعاً من الغلو تعيش في الشام لم يكن لها مثيل في العراق كالنصيرية في حمص وفي جبالهم»[٤].

ويقول الشيخ محمد حسين الزين عن النصيرية: «إنهم ظهروا في أيام الحسن العسكري، وكثروا بعد وفاته، ثم قلوا، ولم يزالوا كذلك إلى يومنا هذا، وجلهم في جبال اللاذقية، ويشاع عنهم انهم يغالون في على امير المؤمنين (ع). وعلى كل فقد تبرأ الحسن العسكرى من مقالات ابن نصير — الزعيم الأول للنصيرية — واتباعه على تلك المقالات الفاسدة»[٥].

وهكذا نرى أن مصادر الشيعة تثبت وجود ابن نصير وطائفته الغالية، التي رفضها أئمة الشيعة، وعلماؤهم، وبناء على ذلك لا يستطيع أحد أن يقول بوجود صلة لها بالإثنى عشرية، ولا يجوز من ثم أن تنسب إلى الشيعة ماداموا يتبرأون منها ومن أفكارها.

---

(١) انظر ما سبق، ص: ٣١٢ — ٣١٤

(٢) انظر فرق الشيعة (النوبختي) ص: ٧٨.

(٣) الرجال (الكشي)، ص: ٤٣٥ — ٤٣٦، ٤٣٨.

(٤) الفكر الشيعي والنزعات الصوفية في القرن الثاني عشر الهجري (كامل مصطفى الشيبي) نقلاً عن «العلويون أو النصيرية» (عبد الحسين مهدي العسكري) ص: ٤٠ — ٤١.

(٥) الشيعة في التاريخ (محمد حسين الزين العاملي) ص: ٩٥.

ثالثاً: يؤكد المؤرخون والرحالة الذين زاروا الشام وكتبوا عنه وجود اتباع هذه الطائفة وانتشار عقائدهم في الاماكن الخاصة بهم وقد مر بنا من قبل ما ذكره ابن تيمية في فتواه(١)، وابن بطوطه في رحلته(٢)، عن اتباع النصيرية وعقائدهم. وفي التاريخ الحديث يتحدث فيليب حتّى في «تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين» ويصف مذهب النصيرية بأنه مذهب سرى الطابع كهنوتى النظام باطنى التعليم، ويقول عن النصيرية، أنهم شأن غلاة الشيعة يؤلهون عليا، وهو فيما يرون آخر مراحل التجسد الإلهى وأهمها، اما المتأخرون من اتباع هذه الملة فمنهم «التختجية» الحطابون في غربي الأناضول، والقزلباشية (ذووا الرؤوس الحمراء) في شرقي الأناضول، و(العلى الهية) في فارس وتركستان، ولذلك يسمى النصيرية احياناً بالعلويين، وقد اشتهروا بهذا الاسم حينما حول الفرنسيون المنطقة التي تكتنف اللاذقية إلى دويلة منفصلة سموها العلويون.. ويتمثل مذهب هذه الملة في آراء شيعية متطرفة نابتة في أصل وثنى أو هو — بتعبير آخر — رواسب من ملل سورية وثنية مغلفة بغشاء من التعليم الشيعى المنحرف»(٣). ويؤكد امين الريحاني ما سبق أن ذكرناه عن ارتباط هذه الطائفة بالقوى الاجنبية خلال التأريخ، فيقول: «والغريب العجيب ان يجمع الغرض بين هاتين الاقليتين: المارونية والعلوية، وكلتاهما متمسكة بعقيدتها وبأوليائها اشد التمسك فتسلكان مسلكاً واحداً في الماضى والحاضر، وتكونان مع السائدين من الأجانب على أهل البلاد الوطنيين»(٤).

رابعاً: ان النصيرية المعاصرين، أو على الأقل بعضاً منهم، لا زالوا متمسكين ببعض الأفكار الباطنية التي نادى بها اسلافهم الغلاة، كفكرة التناسخ أو التقمص، التي حاولوا ايجاد تبرير لها(٥). كما يلاحظ انهم يلجأون إلى الرمز في الدين، ويتمسكون بما يسمى الصورة الباطنية للعقيدة والعبادة، زاعمين كالباطنية ان بعض الاحكام الدينية لايعلمها إلا الخواص، ويذهبون إلى ان للقرآن ظاهراً وباطناً، شأنهم في ذلك شأن الباطنية عموماً. وإن العبادات من صلاة وزكاة

(١) انظر ما سبق ص: ٣٢٤.
(٢) انظر ما سبق ص: ٣٢٠ .
(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (فيليب حتى) ص: ٢٢٠.
(٤) النكبات (أمين الريحاني) ص: ١٤٠ — ١٤٢.
(٥) انظر إسلام بلا مذاهب، ص: ٣٦٩، ٣٨٦ — ٣٨٧.

وصوم وحج لها ظاهر وباطن. ويذكر مصطفى الشكعة ان من جملة ما كتبه الامير حسن المكزون السنجارى المتوفى سنة ٦٣٨هـ، وهو من كبار أئمة المذهب العلوى، رسالة اسماها «تزكية النفس في معرفة بواطن العبادات الخمس»، جعل فيها للصلاة والصوم والزكاة والحج والجهاد بواطن. وفي معرض ذكره لبواطن الصلاة والصيام والحج، جعل لكل فريضة اشخاصاً، أي إن لكل صلاة شخصاً أو أشخاصاً، ترتبط هذه الصلاة أو تلك به أو بهم بشكل أو بآخر، ونفس الشيء ينسحب على الصيام.. الخ» وهنا يكمن الخطر — كما يقول الشكعة — على العقيدة من خلال تصورات النزعة الباطنية التي فرضت على هذه الفروض وربطتها بأشخاص[١].

ويورد الشكعة تلخيصاً لفكرة المكزون حول معرفة الله تعالى عن طريق العبادة، ويتحدث عن «المعرفة الحقيقية» التي هي كما يقول — شجرة ذات اصل ثابت وفرع باسق، لا تنال ثمرتها إلا برفع ايدى السؤال إلى فروعها الزكية، فاصلها الازل، وفرعها الابد، وثمرها السرمد، وهذه الرتب الثلاث هي التي عبر عنها أهل التوحيد بـ «المعنى» «والحجاب» و«الباب». وقد عبر عنها الحكماء بالبارىء، والعقل، والنفس، وهي التي تعرف بمعرفتها سائر الاشياء. و«المعنى» من هذه الرتب الثلاث هو الحق الذي أبدع «الحجاب الأول»، والحجاب الأول، هو الذي خلق الباب، والباب هو الذي اختص الايتام بقدرة المشيئة الظاهرة فيه، وكذلك ظهرت «المقامات الخمس»، من العالم الكبير النوراني، رتبة رتبة. وعن الرتب الاخيرة تكونت سائر الموجودات مما دونهم» ويستطرد المكزون في هذا الباب الذي خصصه لمعرفة اقسام العبادة وصفة باطنها قائلا: «وانما ذكرت ذلك ليعرف العبد الوسائط التي بينه وبين باريه الحق، ولا سبيل إلى معرفة هذه المقامات إلا بمعرفته، ومعرفته لا تصح إلا بذاته، وذاته لا تعرف إلا برؤيته، ورؤيته لا تمكن إلا بتجليه، وتجليه لا يدرك إلا بكماله»[٢].

ولا شك أن هذه الافكار تمثل جوهر العقائد النصيرية الباطنية التي ذكرناها من قبل. والمهم في الأمر أن المكزون هذا له مكانة هامة وكبيرة عند العلويين

---

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة)، ص : ٣٧٦ — ٣٧٨.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٣٧٨ — ٣٨٠.

المعاصرين، بل إن بعض مثقفيهم حاولوا صياغة أفكاره في قالب فلسفي صوفي، باعتبار أنها تعبير عن المذهب وشرح له، الامر الذي يدل على إن فكر النصيرية المعاصر لا زال محملا بهذه الافكار الباطنية.

واضافة إلى ذلك، كان يسود في أوساط النصيرية إلى عهد قريب، عدم الاهتمام بشعائر الدين، وقد لاحظ هذا أحد علماء الشيعة، وهو الشيخ محمد رضا شمس الدين الذي اوفدته المراجع الدينية في النجف الاشرف عام ١٩٥٦/١٣٧٦، إلى جبل النصيرية في سوريا للتعرف على أحوالهم، وقد قوبل بترحيب حار من افراد الطائفة كما أثنى عليهم ومدحهم، ولكنه لاحظ عدم اهتمام النصيرية بفرائض الدين من صلاة وحج وعدم وجود مساجد في منطقتهم فوعظهم وحثهم على التمسك باهداب الدين. ومما ورد فيما كتبه عنهم قوله: «حدثني الدكتور حسن الحسن في طرطوس عن رجل منذ خمسين عاماً يعد أول من حج إلى بيت الله الحرام، وأول من بني جامعاً في بلاد العلويين، وهذا يدل على تساهل العلويين بفريضتي الحج والصلاة، كما لمسنا منهم ذلك، وهذا مايؤسف له كل الأسف، ونذكر به شباب العلويين اليوم»[1].

خامساً: يبدو أنه قد بذلت جهود منظمة ومكثفة، من قبل الشيعة الإثنى عشرية لإخراج النصيرية من حالة الجهل التي كانوا فيها، والمعتقدات الفاسدة والخرافات التي كانوا يؤمنون بها. واقناعهم باعتناق مذهب الإمامية الجعفرية وقد تكللت تلك الجهود بالنجاح إلى حد كبير، إذ تبنى كثير من أفراد الطائفة المذهب الجعفرى وارتبطت عقائدهم وعباداتهم به. ويذكر أنه في بداية السبعينات ميلادية قام وفد من علماء الشيعة الايرانيين برئاسة العلامة الشيعى السيد حسن مهدى الشيرازى، بزيارة مناطق النصيرية في الجبال والساحل ومنطقة طرابلس الشام والتقى الوفد بعلماء النصيرية ووجهائهم وأهل الرأى فيهم، واتفق الجميع على أن العقيدة الأصلية للعلويين هي العقيدة الإسلامية، وإن مذهبهم هو مذهب الشيعة، وانهم اتباع أهل البيت وشيعتهم، وأن الانحرافات الطارئة ــ كانت في الحقيقة دخيلة عليهم ولم تكن من الواقع في شيء. وأصدر الجميع في ذلك بياناً ابرزوا فيه أمرين:

---

(١) العلويون أو النصيرية ص: ٤٦ ــ ٤٧.

الأول: ان العلويين هم شيعة ينتمون إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب بالولاية والنسب، كسائر الشيعة الذين يرتفع انتماؤهم العقيدي إلى الإمام على، وبعضهم يرتفع اليه انتماؤه النسبي أيضاً. والثاني: ان «العلويين» و«الشيعة» كلمتان مترادفتان مثل كلمتي «الإمامية» و«الجعفرية»[1]. وقد صدر هذا البيان تحت عنوان: «العلويون شيعة أهل البيت»، بيان عن عقيدة العلويين اصدره الافاضل من رجال الدين من المسلمين (العلويين) في الجمهوريتين السورية واللبنانية)[2]، وقد وقعه ثمانون شيخاً ووجيهاً ومثقفاً يمثلون مختلف قبائل العلويين وتكتلاتهم وختموا بيانهم بالقول: «هذه هي معتقداتنا نحن المسلمين ((العلويين)) ومذهبنا هو المذهب الجعفرى الذي هو مذهب من عرفوا بالعلويين والشيعة معاً، وان التسمية(الشيعى والعلوى) تشير إلى مدلول واحد، وإلى فئة واحدة هي الفئة الإمامية الإثنى عشرية»[3].

ولا شك ان هذه خطوة طيبة، ينبغي الإشادة بها، في سبيل تصحيح عقائد النصيرية واخراجهم من دائرة الغلو والجهل، والعقائد الخرافية الفاسدة، التي كانوا يعتقدونها. ولكن هنا قد يثار سؤال: أنه مادام النصيرية قد تبنوا اصول وعقائد المذهب الامامي الجعفرى فلماذا ظلوا متمسكين باسم «العلويين» الذي تثار حوله الشكوك والشبهات؟، اما كان من الاجدر والأوفق ان يخلعوا الاسم كما خلعوا المعتقد، لا سيما وان هناك طوائف، وباعتراف العلويين أنفسهم، لا زالوا متمسكين بتلك الآراء الفاسدة المنسوبة إلى النصيرية. هذا اضافة إلى انه كان ينبغي على «الجعفريين الجدد» ان يعلنوا كما أعلن الجعفرية قديماً، براءتهم من تاريخ طائفة النصيرية وعقائدهم، ومن مؤسس هذه النحلة ابن نصير ومن اسهم معه في صياغة تلك العقائد الضالة. انه بدون تحقيق هذين الأمرين، يظل امر النصيرية غائماً تحوم حوله الشكوك. ويجد من يرتابون في أمرهم، ويتهمون موقفهم هذا بالتقية وانهم يظهرون غير ما يبطنون، سنداً لدعواهم. وهذا لا يمنع من وجود افراد بينهم التزموا التزاماً بيناً بالمذهب الجعفري، وكتبوا فيه، ودعوا إليه، ولكنهم يظلون افراداً لا

---

(١) مقدمة: العلويون شيعة أهل البيت، نقلاً عن: أعمال السيد حسن الشيرازي، ص: ٣١٨.

(٢) نشرت هذا البيان دار صادر — بيروت.

(٣) العلويون شيعة أهل البيت، نقلاً عن: أعمال السيد حسن الشيرازي، ص: ٣٣٥.

يشكلون ظاهرة عامة. كما وجد بعض المثقفين من النصيرية رفضوا المذهب لما تضمنه من خرافات، واتخذوا من المذاهب المادية كالماركسية والوجودية والقومية العربية والقومية السورية بديلاً للافكار الدينية، كما تأثر قليل من هؤلاء المثقفين بالإسلام والتزموا به. وفي الوقت ذاته ظلت الطبقة العامة واقعة تحت تأثير الخرافات المذهبية، والخضوع لسلطة رجال الدين وزعماء الطائفة، وبقيت طبقة شيوخ الطائفة والرؤساء متمسكين بالمذهب لا ايماناً به وقناعة بعقائده، ولكن من اجل الحفاظ على شخصيتهم ومكانتهم المتميزة بين الاتباع والعامة[1].

---

(١) انظر دراسات في الفرق والمذاهب القديمة المعاصرة (عبد الله الأمين) ص: ١٣٥ — ١٣٦.

الفصل الثامن

الدروز: أصولهم وعقائدهم وموقفهم من الإسلام

أصل طائفة الدروز :

الدروز كالنصيرية، من الفرق الباطنية المنحرفة التي انتهى بها الأمر إلى الخروج من الإسلام، وهم يرفضون بشدة اسم الدروز ويفضلون أن يسموا بدلاً منه «الموحدين»[(١)]. ورغم أن عقائدهم تتضمن تأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الشيعي الإسماعيلي الفاطمي، فإن الدروز يحاولون العودة بأصول مذهبهم، إلى المذاهب والفلسفات والأديان السابقة على الإسلام، ويتبنونها جميعاً. وفي ذلك يقول كمال جنبلاط، أحد زعماء الدروز المعاصرين[(*)]: «وفي رأينا أنه لا يمكن النظر إلى مسلك التوحيد (الدين الدرزي) منفصلاً عن مسالك الحكمة والعرفان المتقدمة في أدوار التاريخ المعروف والمجهول والتي عمرت بها حياة المؤمنين الأولين والموحدين في مصر الفرعونية القديمة، في الهند وإيران، وبلاد التبت، وما رواء الواحات وفي بابل وآشور، وفي اليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وعلى انفراج شواطئه. ثم بعد ذلك في الإسلام مروراً بالنصرانية الأولى وما قبلها، فيما تكشفت عنه مغاور البحر الميت في فلسطين، وفي المذاهب العرفانية التي انتشرت في كل صقع من أصقاع العالم القديمة، فالحكمة لا تنفصل في أي زمان أو مكان»[(٢)]. ويؤكد جنبلاط بصفة خاصة ارتباط مذهبهم بمذاهب حكماء الهنود، واستمدادهم

---

(١) طائفة الدروز (محمد كامل حسين)، ص ٦. إسلام بلا مذاهب (الشكعة)، ط. ٤، ص ٢٥٨.

(*) كمال جنبلاط، أحد زعماء السياسة في لبنان، قُتل في لبنان بعد أحداث لبنان عام ١٩٧٧، ذو ثقافة واسعة ومعرفة عميقة بالديانات الهندية القديمة، وفي السنوات الأخيرة من حياته كثر تردده على الهند للجلسات الروحية هناك.

(٢) أضواء على مسالك التوحيد الدرزية (د. سامي كرم)، ص ٢٦٠.

تعاليمهم من كتب الحكمة الهندية وغيرها من المذاهب والفلسفات الإنسانية العامة[1].

ورغم مزاعم جنبلاط أن الدروز يمثلون امتداداً للحكمة الإنسانية فإن هذا المذهب يقوم على الاعتقاد في ألوهية الحاكم بأمر الله (المنصور بن العزيز بالله ابن المعز لدين الله الفاطمي، الذي تولى الخلافة الفاطمية في مصر في رمضان عام ٣٨٦هـ، وقتل في سبعة شوال عام ٤١١هـ). وقد بدأت الدعوة إلى تأليه الحاكم قبيل عام ٤٠٨هـ، وقد ذكر ثلاثة أشخاص تُنْسب إلى كل منهم بداية هذه الدعوة هم: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني، ويعرف باللبَّاد، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم أو الأجدع ثم محمد بن إسماعيل الدَّرَزي المعروف بنشتكين. والمعلومات حول هؤلاء الأشخاص الثلاثة قليلة جداً ومضطربة، الأمر الذي أدى إلى غموض وخلاف حول مصدر الدعوة وأول من بدأ بها.

فحمزة بن علي بن أحمد الزوزني أصله من زوزن بالقرب من نيسابور، ويقال أنه وفد إلى مصر عام ٤٠٥هـ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التأويلية، وما لبث أن أصبح ممثلاً لدعاة الفرس، وصلة وصل بينهم وبين الحاكم بأمر الله، الذي ضمه إلى حاشيته وأسكنه في قصره.. ولم يلبث أن أصبح من الدعاة الذين يكونون دائماً في مَعِيَّة الإمام ولا يفارقون مقر قيادته أبداً، وسرعان ما أصبحت لحمزة حظوة عند الحاكم، لما أظهره من إخلاص وما بذله من جهد في تقوية أواصر الدعوة وتركيز.دعائمها في فارس. كما أنه ساهم مساهمة فعَّالة في خوض غمار الجدل الديني والدفاع عن فلسفة المذهب الذي يبشر به، واستطاع أن يجمع حوله بعض الدعاة وأن يتفقوا سراً على الدعوة إلى تأليه الحاكم، معتمداً في دعوته على أصول وأحكام جديدة استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية[2].

---

(١) أضواء على مسالك التوحيد الدرزية، ص ٥١.

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام، (مصطفى غالب)، كاتب شيعي إسماعيلي يمجد في كتاباته الحركات الباطنية ويمتدح جهودها في سبيل التحلل من أحكام الشرع!!، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢.

وكان من بين الدعاة الذين إلتفوا حول حمزة، محمد بن إسماعيل الدَّرَزي [1]، والحسن بن حيدرة الفرغاني، أما محمد بن إسماعيل فيقال أنه تركي أصله من فارس، ويدعى نَشْتكِين، كان أحد أركان القوة الخفية اليهودية التي تعمل للكيد للنصرانية والإسلام، جاء إلى مصر عام ٤٠٧هـ، أو قبلها بقليل واتصل بحمزة وعمل معه على رسم خطط الدعوة، وكان حمزة قد اتفق مع دعاته بما فيهم محمد بن إسماعيل ألا يجهر أحد بالدعوة أو يكشف مضمون المذهب إلا بعد الإذن في ذلك منه، ولكن يبدو أن الداعي نَشْتكِين بادر إلى الكشف عن أسرار الدعوة واتصل بالحاكم وحسن له فكرة ادعاء الألوهية، ويبدو أن الحاكم وافقه سراً وترك له إعلان هذا الأمر، فلما أعلن الدَرَزي الدعوة إلى تأليه الحاكم بالجامع الأزهر بالقاهرة، ثار عليه الناس وأرادوا الفتك به، فأعلن الحاكم البراءة منه ومن دعوته، ولكن في نفس الوقت وفر له الحماية وسهل له الفرار إلى وادي التيم في الشام[2]، حيث بث الدعوة بين سكان هذا الوادي ولقى استجابة منهم. ولا أحد يدري كيف انتهت حياة الدرزي، هل مات ودفن بوادي التيم أم أنه قتل عام ٤١٠هـ بتدبير من منافسه حمزة بن علي الذي غضب عليه لجهره بالدعوة قبل الإذن له، كما تحكي إحدى هذه الروايات[3].

أما الأخرم أو الأجدع فلا يعلم شيء عن حياته أو من أين أتى، ولكن يقال إنه بث الدعوة إلى تأليه الحاكم بتواطؤ أيضاً مع الحاكم نفسه وبإيعاز منه، وكان يبعث الرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى العقيدة الجديدة، وكان يطلب من العلماء وكبار رجال الدعوة أجوبة على رقاعه، مما جعل الحاكم يخلع عليه ويركبه معه

(١) هناك خلاف حول أصل كلمة (درزي) هل هي بضم الدال وسكون الراء، أم بفتح الدال والراء كليهما، ومرد هذا يعود إلى الخلاف حول حقيقة الشخص الذي ينسب إليه الدروز هل هو محمد بن إسماعيل نشتكين الدَّرَزي، بفتح الدال المشددة وفتح الراء الذي انتهى أمره بالقتل في وادي التيم، أو هو أبو منصور أنوشتكين الدُّرْزي بضم الدال المشددة وسكون الراء، وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله، ويقال أن الطائفة تنسب إلى هذا الأخير دون الأول، ولا زال الدروز حتى اليوم يلعنون نشتكين ويجلون أنوشتكين، انظر: الدروز ظاهرهم وباطنهم «الزعبي»، ص ٢٧، ٥٢ ــ ٥٦. إسلام بلا مذاهب «الشكعة»، ص. ٤، ٢٥٨.

(٢) واد يقع بين دمشق وبانياس.

(٣) طائفة الدروز (محمد كامل حسين) ص ٧٧.

فرساً مطهماً ويسيره في موكبه ويوليه عطفه ورعايته، غير أنه لم تمض على هذا التكريم عدة أيام حتى وثب على الفرغاني رجل من أهل السنة وقتله، وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه حينما كان يسير معهم بالقاهرة عام ٤٠٨هـ، فغضب الحاكم بأمر الله وأمر بإعدام الرجل الذي قتل الأخرم بينما أمر بدفن الأخرم على نفقة القصر[١]. وممن بعث إليهم الأخرم برسائل، الداعي الإسماعيلي أحمد حميد الدين الكرماني (توفي بعد ٤٠٨هـ/١٠٧١م) وعرض في هذه الرسائل نظريته الجديدة وانتهى في إحدى رسائله إلى القول: «إن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات وقشور وحشو، ولا تتعلق بها نجاة، وأن الناس لا ينبغي أن يوجهوا وجوههم إلى القبلة لأنها حائط وأن المعبود هو الحاكم. فرد عليه الكرماني برسالته المشهورة «الرسالة الواعظة»[٢]. وبعد مقتل الفرغاني الأخرم، وجهر نَشْتكين بالدعوة إلى تأليه الحاكم، لم يكن أمام حمزة إلا أن يجهر هو كذلك بالدعوة الجديدة ويخرج مذهبه من دور الستر. فدعا من ثم إلى تأليه الحاكم وأظهر نشاطه هذا عام ٤٠٨هـ. ولم يكتف حمزة بإعلان ألوهية الحاكم رغم المعارضة العنيفة من عامة المسلمين في مصر، بل ونسبت إليه عدة رسائل إبتداءً من هذا التاريخ تدعو جيمعها إلى هذا المعتقد الباطل وتدافع عنه. ويقال إن الناس هاجموا حمزة في مقر إقامته وكادوا يقتلونه لو لم يتدخل الحاكم ويحميه. ثم اختفى حمزة عن الأنظار طيلة سنة ٤٠٩هـ. ووصف هذه السنة في إحدى رسائله بأنها سنة المحنة والامتحان والعذاب، وأن القصد من الغيبة أن يمتحن الخلق بغيبته، والمحنة هي غيابه الذي عاقبهم فيه!!![٣]. ثم ظهر حمزة سنة ٤١٠هـ واستمر في دعوته ونشر رسائله حتى مقتل الحاكم عام ٤١١هـ، حيث اختفى ثانية، ولكنه استمر في نشاطه بعد هذا التاريخ ولفترة استمرت قرابة العشرين عاماً، إذ نسبت له رسائل خلال هذه الفترة. وفي رسالة كتبها عام ٤٣٠هـ، عهد بالدعوة إلى المقتني بهاء الدين أبي الحسن علي بن أحمد

---

(١) النجوم الزاهرة (ابن تغري بردي)، جـ ٤، ص ١٨٣. الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب)، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

(٢) حقق هذه الرسالة ونشرها (د. محمد كامل حسين) في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة مجلد ١٤، جـ ١، (مايو ١٩٥٢)، ص ١ ــ ٢٩.

(٣) مذهب الدروز والتوحيد (عبد الله النجار)، ص ١١٥.

المعروف «بالضيف». وأوكل إليه القيام بشئون الدعوة. وإلى المقتني هذا تنسب مجموعة ضخمة من رسائل الدروز، وشروح على رسائل حمزة بن علي، كما كان له نشاط هائل في تنظيم شئون دعوة الدروز استمر حتى عام ٤٣٣هـ. وأخيراً رأى المقتني بهاء الدين اختلاط الآراء واضطراب الأحوال فهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وفعلاً اعتزلها عام ٤٣٤هـ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد حرصاً على الأصول والأحكام التي وضعها حمزة بن علي والتميمي، وما وضعه هو نفسه(١).

أما الحاكم الذي دارت حوله هذه الدعوة، فقد كان شخصية شاذة غريبة الأطوار فاسدة المزاج مختلطة التفكير. وقد نسب إليه من الأفعال والتصرفات ما يدل على أنه كان مريضاً مرضاً نفسياً غلب على حياته وسيطر عليه. وكان، كما يقول من أرخوا له يخترع في كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها، وكان يفرض الشيء ثم ينقضه. ومما نسب إليه أنه في عام ٣٩٥هـ كتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم، ثم عاد فمحاه عام ٣٩٧هـ. كما أمر بقتل الكلاب وقطع الكرم ومنع بيع العنب والرطب والملوخيا والجرجير والسمك، وضرب أعناق رجال خالفوا أمره هذا. كما منع الحاكم صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها، ومنع عام ٤٠٤هـ النساء من الخروج من البيوت ليلاً ونهاراً ومنع عمل الخفاف لهن، فلم تزل النساء ممنوعات سبع سنين حتى وفاته عام ٤١١هـ. كما أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل واستمروا على ذلك دهراً ثم أبطله. وجعل لأهل الكتاب علامات يعرفون بها، وعاملهم معاملة قاسية فهدم كنائسهم وأذلهم، ثم رجع عن ذلك وأعاد الكنائس إلى حالها. وكان الحاكم يربي شعره، ويلبس الصوف سبع سنين، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ثم عنّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة. وعُرِفَ الحاكم بولعه بالقتل، فقتل كثيراً من العلماء والكُتّاب. وكان يقتل خواصه بنفسه ويعاقبهم بالتحريق بالنار، ونسب اليه من انواع التعذيب التي كان يمارسها ماهو افظع من ذلك، الأمر الذي يدل على قسوة نفسه وغلظة طبعه، كما ذكر انه كان يطلب من الركابية أن يكشفوا عوراتهم، ويعاقب من

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام، ص ٢٥٢.

يغش من التجار، بأن يأمر بأن تفعل به الفاحشة وعلى ملأ من الناس[١]. ولم ينكر الدروز ما نسب إلى الحاكم من تصرفات شاذة غريبة، بل إنهم أكدوا صحتها، ولكنهم أولوها تأويلاً خاصاً، واتخذوا منها دلالات على صدق ألوهية الحاكم، وأن كل ما أتى به من أعمال رموز وإشارات لها معان خفية وتأويل باطني لا يفقهه الناس. وقد كتب داعية المذهب ومؤسسه حمزة بن علي، رسالة خاصة في هذا الصدد أطلق عليها: «كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل»[٢]. ولا شك أن هذه أفعال تدل على نفس مريضة سيطرت عليها فكرة الألوهية، وربما كان للبيئة التي نشأ فيها الحاكم أثر في دفعه إلى التفكير في دعوى الألوهية، ثم وجد من أتباعه أو المتآمرين على الإسلام من زين له هذه الدعوة ونماها في نفسه[٣]. فالحاكم تولى مقاليد الأمور وهو صغير السن، وقد أحيط منذ صغره بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الإسماعيلية على أئمتها، فتأثر بهذه العقائد، إلى جانب أنه رأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم، فشاء طموحه، وهو في مثل هذه السن الصغير ــ أن يكون إلهاً مثل الملوك الأقدمين من الفراعنة[٤]. واختمرت هذه الفكرة في نفسه، ولكن لم يعلنها للناس ولعله أسَرَّ بها إلى بعض الدعاة حوله فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها على مرور الزمن، فرسموا له هذه السياسة حتى يفهم من أفعاله أنه هو الخالق وأنه هو المحيي والمميت والرازق والوهاب إلى غير ذلك من أسماء الله وصفاته الحسنى[٥].

وقد انتهت حياة الحاكم نهاية غامضة لا أحد يعرف تفاصيلها على وجه التأكيد، ولكن مما يرجح أن أخته ست الملك قد دبرت اغتياله أثناء جولته التي كان يقوم بها على سفح جبل المُقَطَّم، وربما دفعها إلى ذلك أمران: الأول خوفها

(١) انظر عن حياة الحاكم وما قام به من أعمال: البداية والنهاية (ابن كثير)، جـ ١٢، ص ٩ ــ ١٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (ابن تغري بردي)، جـ ٤، ص ١٧٦ / ١٨٥. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (السيوطي)، جـ ٢، ص ٢٨١ ــ ٢٨٣، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (محمد عبد الله عنان).

(٢) انظر نص هذه الرسالة في:اعقيدة الدروز، عرض ونقد (محمد أحمد الخطيب)، ص ٦٥ ــ ٧٩.

(٣) طائفة الدروز، ص ٤٩.

(٤) البداية والنهاية (ابن كثير)، مجلد ١٢،، ص ٩.

(٥) أضواء على العقيدة الدرزية (أحمد فوزان). ص ٢٣ /٢٤.

من أن تؤدي تصرفات الحاكم الغريبة الأطوار إلى نهاية الدولة الفاطمية، والثاني خوفها على نفسها من بطشه، إذ يقال أنه اتهمها بسوء سلوكها مع الرجال(١). أما الدروز فيقولون بغيبة الحاكم، ويزعمون أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلاً، وأصبح هذا الادعاء أصلاً من أصول عقيدتهم(٢)، ويزعم الدروز أن هذه الغيبة ستستمر ولن يعود الحاكم للظهور في الصورة الناسوتية إلا يوم القيامة، وهو اليوم الذي يظهر فيه مذهب الدروز على غيره من المذاهب والأديان(٣). وقد وضع اغتيال الحاكم أو غيبته حداً لدعوة ألوهيته في مصر، ولكن أصحاب هذه الدعوة أو بعضهم فروا إلى وادي التيم، كما سبق أن أشرنا، وهناك فرخت هذه الدعوة واستمرت حتى اليوم(٥).

عقائد الدروز :

يستمد الدروز عقائدهم من مجموعة من الرسائل تبلغ ١١١ رسالة أطلقوا عليها «رسائل الحكمة»، وهي رسائل منسوبة إلى أئمتهم، كحمزة بن علي، والمقتني بهاء الدين وغيرهم، وقد أصبحت هذه الرسائل بالنسبة للدروز بعد غيبة هؤلاء الأئمة قائمة بالأمر والنهي، والتحليل والتحريم(٤). وقد وضع الدروز حديثاً كتاباً أطلقوا عليه «المنفرد بذاته» أو «مصحف الدروز» حاولوا نسبته إلى حمزة بن علي، ولكن لغة الكتاب وأسلوبه يكشفان عن حداثته. وربما كان كاتبه كمال جنبلاط تعاوناً مع عاطف العجمي، كما يقول محمد أحمد الخطيب، الذي اطلع على نسخة من هذا الكتاب فوجد أن كاتبه، أو كاتبيه، يحاول أن يحاكي فيه

(١) البداية والنهاية (ابن كثير)، مجلد ١٢، ص ١٠، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم «ابن الجوزي»، جـ ٧، ص ٢٩٨ / ٣٠٠، النجوم الزاهرة «ابن تغري بردي»، جـ ٤، ص ١٨٦ وما بعدها.

(٢) عقيدة الدروز، ص ٨٤.

(٣) طائفة الدروز، ص ١٢٥.

(٥) والعجيب أن بعض الكتّاب الباطنيين المعاصرين كعارف تامر يدافع عن (الحاكم..) وينفي ضلالاته التي أكدتها كتب التاريخ كما جاء ذلك في كتابه (الحاكم بأمر الله خليفة وإمام مصلح)، نشر دار الآفاق الجديدة — بيروت.

(٤) انظر: الدروز في التاريخ (نجلاء أبو عز الدين) ص: ١٣٧. وعن رسائل الدروز، انظر مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٥١٤ / ٥٥٦.

القرآن، ويقتبس الكثير من الآيات القرآنية التي توافق هواه، فيبدلها ويحورها ويضيف إليها ليبرهن على ما يرمي إليه. كما وجد أيضاً، أن معظم الآيات التي عبث بها كاتب «مصحف الدروز» آيات تشير إلى مشاهد القيامة وتعد بعذاب النار للكافرين، ونعيم الجنة للمؤمنين. وحاول هذا الدرزي أن يثبت عن طريق تحريفها، أن العذاب سيكون لكل من يكفر بألوهية الحاكم، والنعيم سيكون للموحدين الذين يعبدون الحاكم. وضرب مثلاً لذلك بما جاء في «عرف الأمر والتقديم» إذ يقول: «أنتم وما تعبدون مكبكبون على وجوهكم، يوم ينادي مولاكم الحاكم من مكان بعيد، هذا يومكم الذي فيه توعدون، تتلوها أيام العذاب إنَّكم لخالدون ولات محيص.. إلى أن يقول: وإلا فقولوا لي أيها الضالون المعاندون، فهل جاء لكم رب غيره مع جنوده، أروني إن كنتم صادقين»[1].

وينقسم هذا «المصحف» إلى أربعة وأربعين عرفاً، ويقع في مائتين وتسع وستين صفحة، ويقول كاتبه في المقدمة: «جرى تقسيم المصحف المكرم وفق المواضيع ليسهل الاطلاع عليه، ووضع لكل فصل تسميةً تنطبق على ما ورد فيه من معان، وقد اخترنا اسم العرف تناسباً مع ما أطلق على أبناء التوحيد: كنيتم بالأعراف ووصفتم بالأشراف[1]». ويؤكد كمال جنبلاط أن دينهم مستمد من كل مصادر الديانات والفلسفات والمذاهب: «إن الشريعة الدرزية مأخوذة من القرآن ومن ستة عشر كتاباً خَطِّياً لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها، كما أنها تأخذ تعاليمها من الفلسفة اليونانية، وبخاصة الأفلاطونية القديمة، والمسيحية والإسلام، والبوذية، والفرعونية القديمة، ويعتبرون إخوان الصفاء من الدروز، لتشابه الأفكار بينهما، فقد كان إخوان الصفاء يطالبون بمزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية»[2]. وتقول أيضاً نجلاء عز الدين: «يرتكز مذهب الدروز على القرآن الكريم كما فسره دعاة المذهب، ويقر بأن التوراة والإنجيل كتب سماوية أسوة بنظرة الإسلام إلى ديانتي الوحدانية السابقتين، ويعود بدعوة التوحيد إلى أصول ترجع إلى سعى الإنسان منذ القدم إلى معرفة الواحد الحق، فالدروز يكرمون هرمس ـــ حامل رسالة إلٰهية

(١) عقيدة الدروز، ص ٩٥ / ٩٧، انظر أسماء هذه الأعراف في نفس الكتاب، ص ١٩٥ / ١٩٩.

(٢) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط ٤، من مقابلة خاصة مع كمال جنبلاط في منزله بقرية المختارة، صيف ١٩٥٩، ص ٣٠٥ / ٣٠٦.

وفيثاغورس الحكيم الزاهد الذي ينشر دعوة التوحيد وأفلاطون الإلهي. أما أفلوطين فأثره واضح في كتب الدروز الدينية»[1].

تأليه الحاكم بأمر الله :

وعقائد الدروز تدور كلها حول تأليه الحاكم بأمر الله والزعم بأن الله سبحانه وتعالى حل فيه ويعتقد الدروز أن الحاكم هو الصورة الإنسانية للإله، ويعطونه من ثم كل صفات الله تعالى، فيصفونه بأنه الأحد الفرد الصمد المنزه عن الممثول والمثل والمتعالي عن الجنس والشكل، ومولى الكل. الفعل إبداعه والفكر إحداثه والقديم سلطانه. الأسماء لحدوده والصفات لعبيده. ويذهبون إلى أنه لا يشبه الجسمانيين ولا يدرك بوهم ولا يدخل في الخواطر والفهم، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلخ... ونتيجة لهذا التصور للحاكم يتوجه الدروز إليه بالعبادة ويسلمون له كل أمورهم باعتباره إلهاً.

وقد أثبت الدروز هذا التصور للحاكم والتوجه له بالعبادة والطاعة فيما يعرف عندهم «بميثاق ولي الزمان» والذي يؤخذ على كل من يدخل ديانتهم فيقول: «توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد، المنزه عن الأزواج والعدد، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه، وأشهد به على روحه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها، وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره،.. وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنتظر، وأنه قد أسلم وجهه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره، ورضي بجميع أحكامه له وعليه، غير معترض، ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره.. وينتهي إلى أن من اعتقد أو أقرَّ أنه ليس في السماء إله معبود، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين[2]».

ويعتقد الدروز أن إلههم اتخذ له في الأدوار الماضية صوراً ناسوتية أخرى كان الحاكم آخرها. وأنه خلال الأدوار السبعة الإسماعيلية أظهر ناسوته عشر مرات أو

(١) الدروز في التاريخ ص ١٤٨.

(٢) عقيدة الدروز، ص ١٢٢ / ١٢٣.

في عشر مقامات، «ويجب معرفته في المقامات العشرة الربانية وهم: العلي والبار وأبو زكريا وعلياً، والمُعِلْ، والقائم، والمنصور، والمعز، والعزيز، والحاكم، وكلهم إله واحد لا إله إلا هو»[1]. وفي نصٍّ آخر يقولون: «بأنه ظهر في مقام القائم باسمه ووصفه، وظهر في مقام المنصور جلت قدرته، وهو في مقام المعز جلت عظمته، وفي مقام العزيز أيضاً جل جَلاله، وكل هؤلاء واحد لا يشغله شأن عن شأن، يعني لا يشغله ظهوره في صورة عن ظهوره في صورة أخرى[2]». ويمثل ظهور الحاكم عند الدروز الظهور الأخير للإله، وعللوا ذلك بأن المعبود غضب على كل خلقه ما عدا «الموحدين»، ولذلك أوصد باب دعوته فغاب إلى داخل السور المسمى «سد الصين» ليبقى إلى أن يشاء. ثم يظهر يوم الدين[3]»!!.

أما سبب ظهور الإله في هذه الصور أو تجليه فيها فيقول الدروز أنه يريد بذلك أن يعرفنا لاهوتيته ويأنس البشر بمعرفته. ويقول حمزة في رسالة «الغيبة»: «أظهر لنا ناسوت صورته تأنيساً للصور فحار الفكر فيها حين فكر، عجزت العقول عن إدراك أفعالها، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها... فبتقدير أحكامه امتن على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم، فخاطبتهم الصورة بالمألوف من أسمائهم، فأنست العقول إلى ظاهر صورته، واستدرجتهم إلى معرفته بلطيف حكمته، امتناناً منه على خلقه»[4]. فسبب التجلي كما يزعم الدروز هو أن يظهر الجانب الإلهي من معبودهم في صورة إنسانية ولولا هذا التجلي والظهور، كما يقولون، لما كان هناك سبيل إلى معرفة الإله أو العلم به.

ولكن هذه الصورة التي يتجلي فيها إلههم لا تعبر عن حقيقته أو ذاته، بل هي صورة تقريبية أو مظهر خارجي للاله «فلا تقول أن هذه الصورة المرئية هي هو فتجعله محصوراً محدوداً.. بل نقول إنَّه هو هي استتاراً وتقرباً وتأنيساً بغير حد ولا شبه ولا مثل، فمثل هذه الصورة كالسراب الذي تعاينه ماء فإذا جئته بحد العيان لم تجده ماء، كذلك هذه الصورة الظاهرة تراها بعين الطبيعة فتظنها صورة كصورتك فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة ووجدت الله عندها[5]». ولا

(١) عقيدة الدروز ص ١٣٧.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٠.
(٤) مجموعة رسائل الدروز، رسالة الغيبة ص: ١٢٨ / ١٢٩، طائفة الدروز، ص: ١٠٣.
(٥) طائفة الدروز ص: ١٠٣.

يقول الدروز بالتجلي المستمر لإلههم كما ذهبت النصيرية، بل يقولون إن الحاكم هو آخر صورة لهذا التجلي وقالوا: لو كان المعبود سبحانه ينتقل بعد هذا الظهور في الأقمصة، لكان هذا أمراً لا نفاد له وأمداً لا آخر له، وكانت تنفسد الديانة الآن»[1]. كما ذهبوا إلى أن الواحد الذي لا سبيل إلى إدراك لاهوته تجلى في ظهورات في أدوار أولها دور العلي الأعلى تبعه سبعون دوراً بلغ مجموع سنيها ٣٤٣ مليون سنة حتى ظهور البار وكان الحاكم آخر مقام للتجلي، كما كان آباؤه العزيز والمعز والمنعم والقائم مقامات ربانية أيضاً[2].

الحدود الدينية :

ويأتي بعد الحاكم في المرتبة وفقاً لتصور الدروز، ما أسموه بالحدود الدينية الخمسة، ويقولون إن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية والحدود الجسمانية والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة[3]. وهذه الحدود هي :

١ ــ **العقل الكلي**، الذي هو حمزة بن علي، وقد تصور حمزة نفسه بالنسبة إلى الحاكم في مقام المسيح بالنسبة للأب عند النصارى، وزعم أن هذا المقام أمر من الحاكم نفسه. وقال حمزة أنه مُبْدَع من نور الحاكم مؤيد بروح قدسه، مخصوص بعلمه مفوض إليه أمره. وقد أطلعه الحاكم على مكنون سره فحق له بذلك هذه المنزلة. ولا يكتفي حمزة بمنزلة المسيح بل يضم إليها منزلة إسرافيل، ويزعم أنه هو الذي سينفخ في الصور، وأنه ميكائيل صاحب الراجفة ومهلك كل جبار عنيد ومجرد سيف التوحيد على رؤوس المشركين (ويقصد بهم غير الدروز).

وينسب حمزة إلى نفسه المعاني المستورة في القرآن: فهو الطور والكتاب المسطور وهو البيت المعمور وهو صاحب البعث والنشور والنافخ في الصور. وهكذا يمثل حمزة في تصور معتقد الدروز العلة الحقيقية لما يجري في العالم، ومن ثم أطلقوا عليه عِلَّة العلل (بينما الحاكم مُعِلْ عِلَّة العلل)، والسابق الحقيقي والأمر والإرادة وذومعة (أي مع الحاكم في مرتبة قريبة)، وغير ذلك من الصفات

(١) انظر: مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٦٨١.
(٢) الدروز في التاريخ، ص: ١٤١.
(٣) طائفة الدوز، ص ١٠٨.

التي تجعله الفاعل الحقيقي والمتصرف في شئون الكون[1]. ويزعم الدروز أن حمزة ظهر في جميع الأدوار بأسماء مختلفة:

(أ) في دور آدم كان اسمه شطنيل.
(ب) وفي دور نوح كان اسمه فيثاغورس.
(جـ) وفي دور إبراهيم كان اسمه داود.
(د) وفي دور موسى كان اسمه شعيب.
(هـ) وفي دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع وهو المسيح الحقيقي صاحب الإنجيل.
(و) وفي دور محمد (ﷺ) كان اسمه سلمان الفارسي.
(ز) وفي دور الحاكم كان اسمه حمزة بن علي[2].

٢ ــ **النفس الكلية**: وتأتي هذه في المرتبة بعد العقل الكلي، وقد أعطى الدروز هذه المرتبة لأبي إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي الداعي (صهر حمزة).

٣ ــ **الكلمة**: وينسبون هذه المرتبة إلى أبي محمد بن وهب القرشي الداعي.

٤ ــ **الجناح الأيمن**: وهو عندهم نظام المستجيبين أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السماوي الداعي.

٥ ــ **الجناح الأيسر**: الشيخ المقتني بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد الطائي الداعي. وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذي لعبه في إطار الدعوة الدرزية. وبالإضافة إلى هؤلاء هناك حدود الإمامة والتوحيد ومجموعهم سبعون، ما بين حجة وداعية. ويقول الدروز بأن هؤلاء هم المشار إليهم في الآية الكريمة (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فأسلكوه)[3].

التناسخ :

وقد قال الدروز، كما قال النصيرية، بتناسخ الأوراح وانتقالها من جسد إلى آخر. ولكنهم لا يقولون بانتقال النفس إلى جسد حيوان كما ذهب النصيرية لأن

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٦٧١ / ٦٧٣، طائفة الدروز، ص ١١٠.
(٢) مذهب الدورز والتوحيد (النجار)، ص ١٢٣.
(٣) سورة الحاقة، الآية ٣٢.

في انتقالها إلى جسم حيوان ظلماً لها، إذ أنَّ العقاب مرجأ إلى يوم الدين[(١)]. فالنفس إذن تنتقل بعد خروجها من الجسد الذي كانت فيه إلى جسد إنسان آخر، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد، ونفس المشرك إلى مشرك، وزعموا بأن عدد النفوس في العالم محدود وثابت لا يزيد ولا ينقص وأن النفوس باقية أزلية لا تفنى.. ومن ثم فإن عدد الموحدين لا يزيد ولا ينقص، بل إن عدد سكان العالم في رأيهم غير قابل للزيادة ولا النقصان منذ بدء الخليقة، ويبقى على مثل هذه الحال إلى الأبد، لأن البشر لو زادوا سنوياً لضاقت بهم الأرض، ولو نقصوا قليلاً لانقرضوا بمرور الزمن[(٢)]. ولا شك أن الدورز قد جهلوا أن كل شيء عند الله بمقدار. ولا أدري كيف يفسرون الزيادة المطردة والمشاهدة في سكان العالم!!.

ويرتبط قول الدروز بالتَّقَمُّص أو التناسخ بتصورهم للقيامة والعذاب والنعيم والجنة والنار. ففسروا القيامة بأنها اليوم الذي يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد (الدروز) على كل المذاهب والأديان، ويضطر المخالفون لعقيدة التوحيد أن يتحولوا عن دينهم بحد السيف. وفي هذا اليوم يظهر المعبود (الحاكم بأمر الله) في الصورة الناسوتية. ولم تحدد رسائل الدروز تاريخ هذا اليوم ولكنها تذكر أنه سيكون في شهر جمادي أو في شهر رجب، وعلامة قرب هذا اليوم عندما يطغى الملوك على رعيتهم، ولا يعدلون بينهم، ويتسلط المسيحيون واليهود على البلاد، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة، ويملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمته ودينه، ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين، وتظهر كوارث وزلازل بمصر ويتملك اليهود بيت المقدس، إلى غير ذلك من علامات القيامة التي يذكرونها[(٣)].

وقد فسر الدروز العقاب بأنه ما يقع على الإنسان بنُقْلَتِه من درجة عالية إلى

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام، ص ٢٦٣.

(٢) أضواء على العقيدة الدرزية، ص ٥٠ / ٥١، إسلام بلا مذاهب، ط ٤، ص ٣١٠. الدروز في التاريخ، ص: ١٤٦ / ١٤٧.

(٣) طائفة الدروز، ص ١٢١ / ١٢٢، ولعل هذا هو المدخل الذي وجده اليهود لخديعة الدروز، حتى يتعاونوا معهم ما دام الحاكم لن يظهر إلا عند احتلال اليهود بيت المقدس ولهذا يتعاون الدروز مع اليهود كي يعجلوا بظهور الحاكم ونشأة دولتهم!! انظر ما يلي ص: ٣٤٤.

درجة دونها من درجات الدين، وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ الأرواح وتقمصها الأجساد ـــ وكلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية. أما الجزاء فهو زيادة درجته في العلوم الدينية وارتفاعه من خلال التكرار في الأجساد من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ درجة حد المكاسر فيزيد في ماله وينبسط في الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أرقى حد من حدود الدين[1].

وينكر الدروز تبعاً لهذا الجنة والنار، والجنة عندهم هي توحيد الخالق، وثمارها المعرفة الحقيقية، والجحيم هو الجهل والشر، وأما النار الكبرى فهي غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل[2]. وللدروز رسائل يعارضون فيها بسخرية ما ورد من ذكر لأوصاف الجنة والنار في القرآن، الأمر الذي يدل على أنهم لا يؤمنون بالغيبيات ويرفضونها جميعاً، ويؤكد عدم إيمانهم بوجود الملائكة، والجن ويقولون بأن الملائكة هم أتباع المذهب الدرزي، والشياطين هم مخالفو هذه العقيدة[3].

وواضح من هذا أن هناك تصورات فلسفية ونصرانية وشيعية أسهمت جميعها في تكوين عقيدة الدروز، واستمد منها الدروز أفكارهم ومعتقداتهم. فمصطلح العقل الكلي، والنفس الكلية، مصطلحات فلسفية. وفكرة الحلول، والكلمة، مسيحية الأصل. بينما مصطلح الدعاة، والحجج، من مصطلحات الشيعة المعروفة. وفكرة التناسخ أو التقمص مستمدة من آراء الهنود ومذاهبهم. وهكذا نرى أن عقيدة الدروز خليط من نظريات وأفكار فلاسفة اليونان وديانات ومذاهب الفرس والهنود والفراعنة وغيرها من المذاهب والفلسفات والأديان.

٢ ـــ موقف الدروز من الشريعة الإسلامية :

الجانب الثاني من معتقدات الدروز هو إسقاط التكاليف ونقض الشريعة.

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد، ص ٨٠، الحركات الباطنية في الإسلام، ٢٦٣. طائفة الدروز ص ١٢٢ ـــ ١٢٣.

(٢) مذهب الدروز والتوحيد، ص ٨٠.
The Druze Faith (Makarem, Sami Nasib) 1974. PP. 85-6.

(٣) عقيدة الدروز، ص ١٦٨ / ١٦٩.

وتعاليم الدروز كلها تقريباً تهدف إلى هذا الجانب وتؤكد أن دعوة الحاكم هدفها الرئيسي ليس هدم الشريعة الإسلامية الظاهرة فحسب، بل تهدف أيضاً إلى إلغاء التأويل الباطني للشريعة، والذي تبناه غلاة الشيعة كالإسماعيلية. ورسائل الدروز المقدسة تفيض بالنصوص التي تشير إلى هذا، فحمزة بن علي يخاطب الدروز في إحدى رسائله (التي تعتبر شرعاً لهم) وعنوانها: «الكتاب المعروف بالنقض الخفي» فيقول: «أما بعد فقد سمعتم قبل هذه الرسالة نسخ الشريعة بإسقاط الزكاة عنكم، وأن الزكاة هي الشريعة بكاملها. وقد بينت لكم في هذه الرسالة نقضها دعامة دعامة، ظاهرها وباطنها، وأن المراد النجاة في غير هذين جميعاً[١]». (أي في غير الظاهر والباطن). وفي رسالة أخرى يقول: «قد بينت لكم في الكتاب المعروف بـ «النقض الخفي» نسخ السبع دعائم ظاهرها وباطنها، وذلك بقوة مولانا جل ذكره وتأييده ولا حول ولا قوة إلا به: ويقصد بمولاه «الحاكم» أخزاه الله وإياه، ويقصد بالسبع دعائم التي نسخها: الشهادتان، الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والولاية. ويقول حمزة بن علي أيضاً: والآن فقد دارت الأدوار وبطل ما كان في جميع الأعصار، ولم يبق من نار الشريعة الشركية غير لهيبها والشرار، وسوف يخمد حسرها ويضمحل العوار[٢]».

وحمزة بن علي يصف نفسه من بين ما وصفها به، بأنه هادم القبلتين، قبلة بيت المقدس وقبلة الكعبة في مكة. ومبيد الشريعتين، الشريعة الظاهرة (أهل السنة) والشريعة الباطنة (الإسماعيلية) أي أنه مبدل لشريعة الإسلام وواضع مكانها شريعة جديدة هي دعوة التوحيد هذه كما يسميها.

وما دامت الشرائع كلها قد نسخت فإن تكاليفها قد سقطت عن الناس عند الدروز، فلا صلاة ولا صيام ولا زكاة إلخ... بل إن الدروز قد أولوا هذه الشعائر تأويلاً يخدم مذهبهم الفاسد، فيؤول لهم حمزة بن علي، الشهادتين تأويلاً ينتهي منه إلى أن الشهادتين تدلان على «التوحيد» بمفهوم الدروز الذي يشير إلى تأليه الحاكم والإيمان بأئمة الدعوة، أو معرفة ديانة التوحيد ومراتب أصحاب هذه الديانة[٣].

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٧٠٧ — ٧٠٨.

(٢) السيرة المستقيمة (حمزة بن علي)، انظر: طائفة الدروز، ص ١٠٥.

(٣) عقيدة الدروز، ص ٢٢١. The Druze Faith, PP. 92-95.

ويذهب حمزة أيضاً إلى أن الحاكم نفسه قد نقض سائر أركان الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد. فالصلاة لا تشير إلى الصلاة المعهودة في الشرع، بل تعني صلة قلوب الدروز بتوحيد الحاكم على يد خمسة حدود (السابق، وبالتالي، والجد، والفتح، والخيال)، والتي هي موجودة دائماً مع الناس. وأن «الفحشاء والمنكر» الذين تنهى عنهما الصلاة هما الشريعتان الظاهر والباطن[١]. وينسب إلى الحاكم إلههم، أنه لم يُصَلِ مدة طويلة، وكان لا يصلي الجمعة ولا صلاة الجنازة ولا العيدين. والزكاة تشير عند الدروز أيضاً، إلى توحيد الحاكم وتزكية القلب وتطهيره في الحالين جميعاً (الظاهر والباطن)، وترك الإنسان ما كان عليه قديماً. وفسروا قول الله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) بأن البر هو توحيد الحاكم و«نفقة ما تحبون» الظاهر والباطن، ومعنى نفقة الشيء تركه، لأن النفقة لا ترجع لصاحبها أبداً[٢]!!. ويقال أن الحاكم أسقط الزكاة عن الناس عام ٤٠٤هـ.

والصوم عند الدروز عبارة عن صيانة القلب بتوحيد الحاكم، وهو أيضاً من الشعائر التي أسقطها الحاكم إذ لم يراع أوقاتها المحدودة[٣]. وكذلك أسقط الحج، وصار له عند الدروز معنى غير آداء المناسك المعروفة ويقال بأن الحاكم نفسه قد قطع الحج سنين عديدة، كما قطع الكسوة عن الكعبة. ويقول الدروز بأن قطع الكسوة عن الشيء يقصد منه كشفه وهتكه. وهكذا قطع الكسوة عن الكعبة يراد به بيان أن المراد غيرها وأنه ليس فيها منفعة.. والبيت المشار إليه في القرآن ليس المراد به الكعبة عند الدروز، بل المراد به توحيد الحاكم موضع السكن والمأوى الذي يطلب المعبود فيه!!! كذلك «الموحدون» أولياء مولانا (الحاكم!؟) سكنت أرواحهم فيه. وفسر الدروز الجهاد بأنه هو الطلبة وبذل الجهد في توحيد الحاكم ومعرفته وأن لا يُشْرِكَ به أحدٌ في سائر الحدود، والتبرىء من العدم المفقود. وكذلك فسروا الولاية بتولي الحاكم... إلخ[٤]، وأقام

---

(١) عقيدة الدروز، ص ٢٢٣. .The Druze Faith, PP. 101

(٢) مذاهب الإسلاميين، جـ ٢، ص ٧١٨. عقيدة الدروز، ٢٢٤.
The Durze Faith, PP. 97.

(٣) عقيدة الدروز، ص ٢٢٥ .The Durze Faith, PP. 101.

(٤) عقيدة الدروز، ص ٢٢٥ / ٢٢٦ .The Druze Faith, PP. 103-106

الدروز بدلاً من هذه الدعائم الإسلامية ما أسموه بخصال التوحيد السبع وهي عندهم :

١ ــ صدق اللسان ويشترط الالتزام به في دائرة الدروز فقط، وهو عوض الصلاة.

٢ ــ حفظ الإخوان ــ ويقصدون به حفظ الدرزي أخاه في المعتقد، وهو عوض الزكاة.

٣ ــ ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان، وهو عوض عن الصوم.

٤ ــ البراءة من الأبالسة والطغيان ــ أي من الأنبياء السابقين ــ ومن الأديان والشرائع.. وهذا عوض الحج.

٥ ــ التوحيد للمولى (أي الحاكم إلههم) في كل عصر وزمان ودهر وأوان، وهو عوض الشهادتين.

٦ ــ الرضا بفعله (أي الحاكم) كيف كان، وهو عوض الجهاد.

٧ ــ التسليم لأمره في السر والحدثان.. وهو عوض الولاية[١].

ويؤكد الدروز المعاصرون موقفهم هذا من شعائر الشريعة وأحكامها، فيذهب كمال جنبلاط، فيما نقله عنه مصطفى الشكعة، إلى أن «الدين الدرزي دين صوفي يعتمد على الداخليات والجواهر ولا يهتم بالشكليات، والطهارة الداخلية أي النفسية الروحية هي الأساس، وأما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها. وقد كان الشيوخ يصلون في المساجد إلى عهد قريب ويصومون رمضان ويحجون البيت، ولكن هذه الفرائض جميعاً قد رفعت عنهم واستبدلت بها تكاليف أخرى»[٢]. وإلى قريب من هذا، يذهب الشيخ محمد أبي شقرا شيخ عقل الدروز، إذ يقول عن عبادات الدروز ومصادر شريعتهم: «الصلاة تختلف عن صلاة جمهور المسلمين، فالفروض وإن كانت خمسة إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة وربما طريقة الصلاة نفسها. هذا والوضوء ليس

(١) مذاهب الإسلاميين، (بدوي)، ص ٧٢٩ وما بعدها. انظر أيضاً، الدروز في التاريخ، ص: ١٤٧ / ١٤٨.

(٢) إسلام بلا مذاهب، (الشكعة)، ط ٤، ص ٣٠٦ / ٣٠٧. انظر أيضاً: الدروز في التاريخ ص: ١٤٨ / ١٤٩.

ضرورياً ما دام المصلي نظيفاً. والصوم معناه الامتناع عن الرفث، ومعنى ذلك انه يجوز الأكل والشرب في الصوم وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد. كما أن صوم رمضان مستحسن عن غيره لأن الصوم فيه مضاعف الثواب. الزكاة معطلة ولا حدود لها، ويمكن أن تكون في شكل صدقات ، وهي اختيارية وهي بالتالي ليست فريضة. الحج لا يعتبر فرضاً خشية الاعتداء على الحجاج الدروز، وهم بالتالي لا يؤمنون بمناسك الحج ويسفهونها، ويرون فيها ظاهرة وثنية، أما الزيارة في حد ذاتها فلا بأس بها. ومصدر التشريع عند الدروز القرآن وحده ليس غير (ولا أدري هل هو «مصحفهم» أم القرآن المعهود). وأحياناً بعض الاجتهادات.. أما الحديث والسنة فإنهما معطلان ولا يؤخذ بهما إطلاقاً[1]».

مجتمع الدروز :

ينقسم مجتمع الدروز من الناحية الدينية إلى طبقتين: طبقة الروحانيين وطبقة الجثمانيين. والروحانيون هم رجال الدين الملمُّون بأصول المذهب، وهم الرؤساء والعقال والأجاويد. فالرؤساء هم الذين بيدهم جميع الأسرار الدينية، والعقال بيدهم الأسرار التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب، والأجاويد بيدهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب. والروحانيون يتمسكون بالقواعد السلوكية في المذهب فلا يدخنون ولا يشربون الخمر كما أنهم يتزهدون في مأكلهم وملبسهم ولهم زي خاص يميزهم عن طبقة الجهال — يتمثل في عمامتهم ولبس قباء أزرق غامق، وإطلاق لحاهم. ولهم أماكن خاصة للعبادة تعرف بالخلوات يجتمعون فيها لسماع ما يتلي عليهم من الكتاب المقدس لديهم وممارسة طقوس عبادتهم[2].

أما طبقة الجثمانيين فتنقسم إلى أمراء وعامة أو جهال، والأمراء هم أصحاب الزعامة الوطنية. أما الجهال فهم سائر أفراد جماعة الدروز، ويسمون أحياناً الشراحين، لأنهم لا يسوغ لهم الاطلاع على رسائل الدروز، بل يطلعون فقط على شروح هذه الرسائل التي يقدمها لهم العقال، كما لا يسمح لهم بمطالعة القرآن ولا يحق لهم حضور المجالس «أو طقوس العبادة» إلا بعد امتحانات طويلة

(١) إسلام بلا مذاهب، (الشكعة)، ط ٤، ص ٣٠٩.
(٢) مذاهب الإسلاميين، جـ ٢، ص ٦٥٨ / ٦٥٩.

تحتاج إلى صبر ومجالدة وإيمان، فإذا ما اطمئن إلى إيمان الشخص أخذت عليه مواثيق معينة، وبذلك يتدرج في مراقي الدرجات الدينية[1]، ويترخص لطبقة الجهال في الاستمتاع بكل الممنوعات على العقال من تدخين وشرب خمر وترف في المعيشة وبذخ، وليس لهم زي خاص يميزهم كجماعة[2].

والدروز الآن منتشرون في مرتفعات سوريا الجنوبية (الجولان)، ويقدر عددهم في هذه المنطقة بحوالي مائة ألف ١٠٠,٠٠٠، كما أن لهم جبلاً خاصاً في لبنان (جبل الدروز) ويقطنه قرابة المائة ألف أيضاً. ومن أشهر مدنهم عبية والشويفات وبعقلين، وتسكن مجموعة منهم في فلسطين العربية عند جبل الكرمل وعكا وطبرية وصفد، ويقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً، وهناك طائفة يسكنون الجبل الأعلى من حلب وأنطاكية. وفي بلاد المغرب بالقرب من تلمسان قبيلة تعرف ببني عيسى تدين بالعقيدة الدرزية[3].

وهكذا نرى أن الدروز كونوا لهم ديناً جديداً استمدوه من بعض الوثنيات القديمة والفلسفة اليونانية وبعض التصورات المسيحية وخلطوا ذلك كله بل بنوه على بعض آراء الشيعة الإسماعيلية، ومن ثم لا ينبغي أن يعدوا من المسلمين أو يعاملوا معاملة الفرق الإسلامية. وقديماً قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية: بأنهم أعظم كفراً من الغالية، يقولون بقدم العالم، وإنكار المعاد وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله، أو مجوساً. وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس، ويظهرون التشيع نفاقاً، ويقول أيضاً: «إن كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم. لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين، بل هم الكفرة الضالون فلا يباح أكل طعامهم، وتسبى نساؤهم وتؤخذ أموالهم فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم... إلخ[4]». كما ذكر ابن عابدين في حاشيته أن الدروز لا ملة لهم إذ يقول: «ظهر

(١) إسلام بلا مذاهب، ط ٤، ص ٢٩٢ / ٢٩٦.
(٢) مذاهب الإسلاميين، جـ ٢، ص ٦٥٨ / ٦٥٩.
(٣) طائفة الدروز، ص ٥ / ٦. إسلام بلا مذاهب، ط ٤، ص ٢٦٠.
(٤) مجموع الفتاوي (ابن تيمية)، مجلد ٣٥، ص ٢٦٢.

من كلامهم ـــ أي الفقهاء ـــ حكم القاضي المنصوب في بلاد الدروز في القطر الشامي، ويكون درزياً ويكون نصرانياً، فكل منهما لا يصح حكمه على المسلمين فإن الدرزي لا ملة له كالمنافق والزنديق وإن سمى نفسه مسلماً[1]».

ومواقف الدروز الآن تؤكد بعدهم عن الإسلام، وتعاونهم مع الصهاينة في إسرائيل لا سيما أولئك الذين يعيشون في إسرائيل، والذين أصبحوا جزءاً من المجتمع الصهيوني. ويقدر عددهم بحوالي خمسين ألفاً، ويحتل بعضهم مراكز هامة في جيش العدو الإسرائيلي. وقد تطوع أعداد من أبنائهم في الجيش الإسرائيلي إبان حرب ١٩٦٧م، كما كانوا عوناً لليهود في حرب ١٩٧٣م. واشتركت كتائب كاملة من جنودهم في الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م. ولهؤلاء الدروز أثر في الحياة السياسية في إسرائيل ولهم نائب درزي في حزب الليكود الحاكم، وقد عبر شيخ الطائفة الدرزية في إسرائيل «أمين طريف» عن مدى انصهار جماعة الدروز وارتباطهم بإسرائيل بقوله: «إن الطائفة الدرزية التي ربطت مصيرها بمصير إسرائيل والشعب اليهودي ستعزز هذا الرباط وستستمر في طريق الولاء والإخلاص للدولة». ورغم أن دروز لبنان لهم مشيخة منفصلة، فإن الصلات بينهم وبين دروز إسرائيل وثيقة، وموقف الأخيرين وسعيهم لعون إخوانهم في الطائفة معنوياً ومادياً إبان أحداث لبنان الأخيرة تكشف عن هذه العلاقة الحميمة. ويسعى الجميع لإقامة دولة لهم في الجولان وحوران والشوف وجبل حوران والصحراء الممتدة ما بين تدمر والأردن والعراق.

---

(١) حاشية (ابن عابدين)، جـ ٥، ص ٣٥٥.